وزارة الثقافة

ذكريات

تأليف: شكري شعشاعة

برنامج الحفاظ على الروايات

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

ذكريات

تأليف: شكري شعشاعة

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٤٥

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: شكري شعشاعة
اسم الكتاب: ذكريات
الطبعة الأولى: ١٩٤٥

الإشراف العام: عبد السَّلام عطاري
مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - نور عرفات
تصميم الغلاف: فاطمة حسين
لوحة الغلاف للفنانة: صوفي حلبي

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

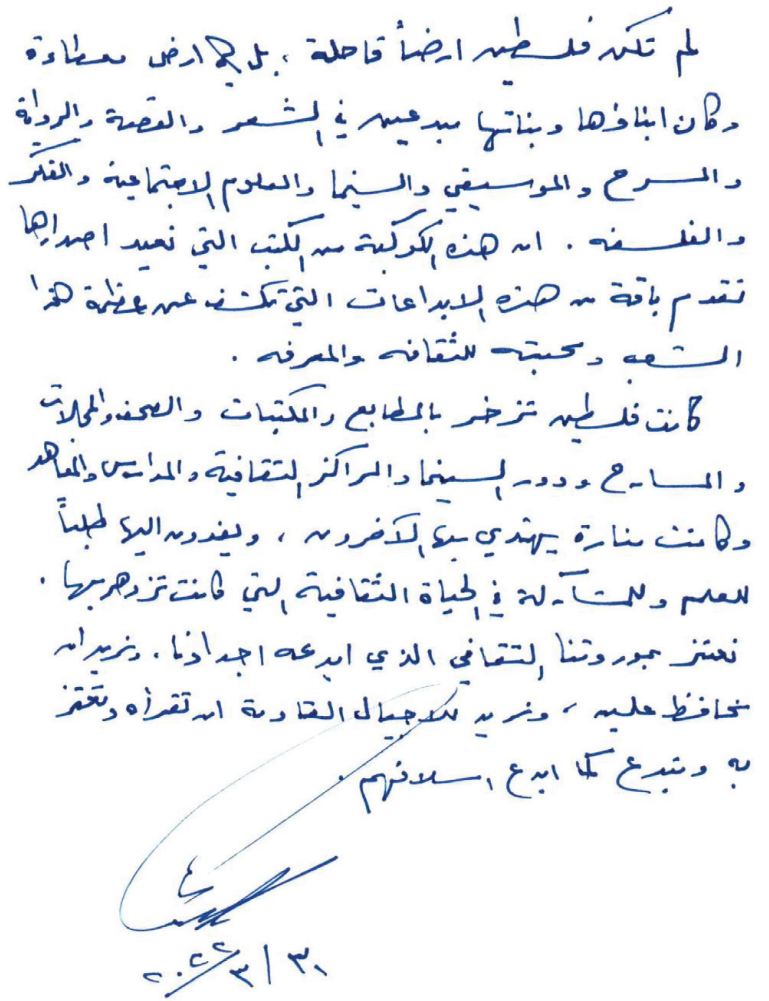

لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة، بل كانت ارضاً معطاءة وكان ابناؤها وبناتها مبدعين في الشعر والقصة والرواية والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر والفلسفة. ان هذه المكتبة من الكتب التي نعيد اصدارها تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا الشعب وحبه للثقافة والمعرفة.

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد وكانت منارة يهتدي بها الآخرون، ويفدون اليها طلباً للعلم والمشاركة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها.

نعتز بموروثنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا. ونريد ان نحافظ عليه، ونريد للاجيال القادمة ان تقرأه وتعتز به وتبدع كما ابدع اسلافهم.

٣٠ / ٣ / ٢٠٢٠

بين يدي الكتاب

مـررت بأيـام طويلـة ظلـماء، فرأيتنـي أسـتعصم بالكتابـة أعلـل بهـا نفـسي، وأهـدف إلى إشـغالها بالخواطـر وبالذكريـات وبالعـبر. واتخـذت المـاضي للحديـث مجـالا، فهـو رحـب الأفـق، رحـب الصـدر، وربمـا كانـت مواعظـه أبلـغ في الأثـر. وأخـف عـلى السـمع، وأشـهى للقلـب. ومـا كنـت في البـدء، أقصـد أن أخـرج قصـة أو كتابـا، ولكـن خاطـري نـزع إلى أن أضرب المثـل عـلى أن المـرء قـد يثمـر، وإن أحـزن، ولم يكـن سـبيله سـهلا، ولياليـه مقمـرة بيضـاء، وأن للشـدائد فضـل الايحـاء بالعظـات، وامتحـان الخاطـر، وبعـث الذكريـات، وامتحـان القلـوب؛ وتمحيـص المـودات. وهـذا مـا جعلنـي أوثـر أن يقـرأ الجمهـور مـا كتبـت.

ليـس الحـاضر -فيـما أحسـب- إلا المـاضي تحت سـماء جديـدة، أمـا ذكرياتنا- بمـا فيهـا مـن إحسـان أو إسـاءة، مـن نجـاح أو اخفـاق، مـن غبطـة أو شـقاء، فهـي لا تخلـو مـن معنـى التحذيـر إن أردنـا العظـة لنمـضي في طريـق الخـير ننشـده للجميـع.

ولسـت أدري أنجحـت فيـما قصصـت عليـك أم أخفقـت؟، فـإن كانـت الأولى -وهـي أمـلي- وطـاب لـك الحديـث، ولهـوت إليـه، وآنسـت بـه، فـإني إذن، بمـا يـسرت لـك مـن هـذه الذكريـات، لجـد مغتبـط وسـعيد.

شكري شعشاعة

في فجر دنياه

-١-

كان وحيد أبوين ثاكلين. فاستهلت حياته في أحضان الحنان والحب. وتألقت دنيا الوالدين في اشراق غرته، حين يصبح وحين يمسي، حين يمرح وحين يرف ويعدو، فهما يريان فيه مباهج الدنيا، وهو منهما في رحب من الإعزاز، وفيض من الحنو، وغمر من العناية.

بل لقد كان عندهما رجعا لصدى وجودهما، وامتدادا لحياتهما، فهو ذكرى الشباب المطوي يعيشان عليها، وأثارة من حرارة الصبا يصطليان بها، وبقية الدنيا الجدية، وبصيص الماضي يتنظران على ضوئه أطياف أيامهما الأولى: أيام الأماني الحالمة، والخيال المنساب، والدنيا اللعوب.

إنك لتعطي دنياك حين تأخذ منها، فهي تجود إذ تسلب. وهذا الصبي، اما صار إلى هذه الدنيا العريضة، حين كتب له أن يعيش وحيد أبوين ثاكلين. ولعله ظل يشعر بالحزن، ويحس وجع الوحدة، ووحشة الانفراد، ما وقع بصره على أخوين.

أو لسنا، ونحن نقضي أوطارنا، ونمشي إلى ملذاتنا، ونلين ونسترسل في طاعة أهوائنا، نبذل الكثير أو القليل من النفس، ونستهلك القليل أو الكثير من الطاقة؟، بلى نحن كما قال النواسي:

ما ارتد طرف امرئ بلذته إلا وشيء يموت في جسده

هل الربيع، وتتفتح الأزاهير، وتعشوشب المروج، ويغرد الطير، فتضحك

الدنيا مغتبطة بصورتها، ويشرق الكون مزهوا بزينته، وأنت إذا فكرت في هذه الصور، تراءت لك كأنما هي في حقائقها تأهب واحتشاد للخريف.

يأتي الربيع وكل شيء ضاحك ثم الخريف وكل شيء باك[1]

-٢-

ومشي الزمان، فإذا الصبي يشب ويترعرع ويفع، ويصحو من غفوة الطفولة ويفتح عينيه على دنياه، فيحس وجوده، وفكر ويحاول أن يدرك ما يرى، وأن يفهم ما يسمع. ولعله ظل ردح من الزمان؛ وفي رأسه أخيلة فيها الكثير من علامات الاستفهام.

فتح عينية على دنياه، فألفاها موزعة بين البيت والمدرسة والمسجد. فأما البيت، ففيه والدته الحبيبة الرؤوم. وهو يذكر نهوضها في الصباح الباكر مع الطير، لا لتشغل نفسها ما يهتم به النساء عادة، من هذه الأمور المتصلة بهن، ولا لتقضي شأن من شؤون البيت، بل لتقوم على تجهيز طعامه، وإعداد ملبسه، وتهيئة أدواته المدرسية، حتى إذا نهض من فراشه، وجد كل شيء جاهزا مهيئا، وأمه قائمة على خدمته، ماثلة بين يديه، تقدم له ما يريد، وتساعده فيما يريد، وتبذل له ما عندها من رأي ورشد، وعطف وحنان.

يذكر هذا، ولا ينساه. وإن نسي كل شيء، فهيهات ينسى هذه القبل الحلوة الفرحة الحزينة، تطبعها على وجنته، وعلى جبينه، مودعة

١ كلّ شعر في هذا الكتاب لم يُنسَب إلى قائله فهو للكاتب

مستقبلة، إذ يغادر البيت، وأن يعود إليه، فهي ذوب نفسها، وخفق قلبها، ورفيف آمالها، وليست هي الحب والحنان وكفى، بل كان فيها شيء من الحزن والخوف وأشياء مهمة غامضة، مكظومة مستمرة، يحسها في ابهام، ويشعر بها في غموض، ولا يدرك لها مغزى، فهو منها في حيرة ملحة، وتساؤل مستمر، كلما غمره فيض من هذا الحنان والحب، واستمتع بهذه القبل الحلوة الفرحة الحزينة.

ويذكر الصبي من أمه، أنها كانت بادية الوجوم، طويلة الصمت، قليلة الحديث، وإذا تكلمت، حين لا يكون بد من الكلام، موجزة مقتصرة على ما يصرح برأيها، أو يفيد غرضها، فكأنها تجد الراحة في الصمت، والغبطة في الاصغاء، أو تجد حظها في أذنها، وليس في لسانها، ولعلها على صواب في هذا الذي اختارته لنفسها، أو هذا الذي ألزمت به نفسها؛ فالأذن تأخذ، بينما اللسان يعطي، وقد يسرف في العطاء.

ولا يدري الصبي، أكان هذا الحزن الصامت، وإن شئت فقل هذا الصمت الحزين، يرافق أمه جري الطبع، وسوق الفطرة، أم هو ما ترك الشكل وخلف الموت؟ هو يعلم أن قد سبقه عدو ليس بقليل من البنين، وأن هذا العدو من اخوانه كلهم طواهم الموت، قبل أن يجيء إلى الدنيا؛ وأن أبويه شجيا بغصة الثكل، وطعما مرارة الفقد، وذاقا حسرة الموت.

كان يعلم هذا، لا من أمه ولا من أبيه، فلقد كانا لا يفتحان فيه فما؛ بل من أحاديث دارت على الألسنة في مجالس ذويه، فبلغت أذنيه،

فتلقاها يومئذ من دون أن يعيرها منه اهتماما، فهو حدث لا تحس من دنياه إلا ما اتصل به هو نفسه.

ربما كان حزن هذه الأم، طبيعة فيها خلق معها، وخلقت معه، وربما كان الشكل قد جلبه، والخوف على وحيدها أمده وقواه، أو لعل كل اولئك جميعا، كان السبب الذي يرجع إليه حزنها ووجومها. وهو يذكر أنه كان يجد في مسحة الحزن الرقيقة الشاحبة، ترف على محياها شيئا من العذوبة والرقة والرضا، فكان يطيل النظر إليها أحيانا، فتحسه فتأخذه إلى صدرها، فتطبع على وجنتيه قبلتين حارتين صارختين، فيهما أمل المستقبل المطل، إلى جانب حرقة الماضي المضمحل.

ويذكر صاحبنا أن أمه لم تكن أما فحسب؛ بل كانت إلى جانب الأمومة صديقة تواسيه؛ ومعلمة ترشده وتهديه. فكثيرا ما فتحت له قلبها، وسألته الرأي في بعض شؤونها، وتحدثت إليه فيما يجعله يأنس بها، ويجرأ على مفاتحتها في مشكلاته، وبثها بنات نفسه، وامتد التشجيع، وطالت المؤانسة؛ بل هذه الرياضة اللينة البارعة، إن صح هذا التعبير، فإذا الصبي يكاشفها بالأمر يعسر عليه في صلته بأترابه، أو يلقى منه ما يؤذيه وببهظه، وإنه ليحمد لها هذا الذي شجعته عليه؛ فكثيرا ما دفع به الهم والأذى عن نفسه، حين كان يلوذ بها ويرجع إلى مشورتها، ويلتمس هدايتها وارشادها.

ولعله يذكر أكثر ما يذكر منها، يوم عاد إليها يحمل بين جنبيه هما ثقيلا، رجع به عقب خصومة ذر قرنها بينه وبين ترب له. فإذا

هـو يلقـي بنفسـه بـين ذراعيهـا، وبـذات صـدره إليهـا. فتأخـذه إلى مقـر الحنـان، فتواسـيه وتخفـف مـن همـه وتهـون مـن أمـره. وترشـده إلى مـا أزال الخصومـة. وأعـاد الصفـاء بينـه وبـين تربـه ذاك. فقـد دلتـه عـلى أن يعمـد برغـم هـذه الخصومـة. وهـذا الجفـاء، إلى ذكـر صاحبـه بالخـير في أحاديثـه. وأن يبتعـد عـن أسـباب الخـلاف. وأن ينصـف هـذا الصاحـب مـن نفسـه. ويعـرف لـه حقـه، وأن يسـتمر عـلى هـذا التدبـير. ويصـبر عليـة. فكأنهـا علمـت بقـول معـن بـن أوس المـزني الشـاعر:

فـما زلـت في لينـي له وتعطفـي عليه كما تحنو على الولد الأم

لأسـتل منه الضغن حتى سـللته وقد كان ذا ضغن يضيق به الحلم

ولقـد أطـاع، فعمـل بمشـورتها، ولم يلبـث إلا قليـلا، حتـى اسـتعاد صداقـة صاحبـه مـن جديـد. واتصـل بينهـما الصفـاء عـلى أحسـن مـا كان مـن قبـل.

وأصـدق الظـن أنـه انتفـع في حياتـه، مـن بعـد، بهـذه التجربـة، وإن كانـت الأيـام في شـوط آخـر مـن عمـره وعلمتـه أن هنالـك صنفـا مـن البـشر، لا يعـرف إلا أن يخـاف ويخـشى، وأن هـذا الصنـف يحسـب الخلـق الكريـم فيـك ضعفـا وجبنـا، فيـسيء إليـك إذ تحسـن، ويقسـو إذ تلـين، ويخـون ويغـدر إذ تركـن إليـه، وللحيـاة دائمـا جوانـب تعـصى عـلى التقديـر وتعـز عـلى الفطـن، فتظـل خـارج الحسـاب.

وكانـت أمـه تحـاول أن تنشـئه عـلى فكـرة الاقتصـاد؛ فتتعمـد أن تمـر وإيـاه في طريقهـما، ببنـاء جميـل، فتلفتـه إليـه، وتقـص عليـه مـن حديـث صاحبـه،

ما يجعله يؤمن بأن الادخار مشفوعا بحسن التدبير في الانفاق، هو السبب القوي في امتلاك مثل ذلك البناء، وعلى هذا النحو، كانت تحفزه على التأثل، وتوقظ وعيه، وتحثه على التفكير في الادخار، بل وعلى ممارسة الادخار.

وكما كانت في سبيل تنشئته على إدراك معاني الاقتصاد، ومرامي الادخار، كانت كذلك في سبيل سوقه بالممارسة إلى معرفة قيم الأشياء، فعودته الرضا بأن لا يتناول نفقة الأسبوع منها ما لم يقم بعمل للبيت، ربما كان يسيرا، وهينا، ولكنه على كل حال مجهود يأتيه صاحبنا، فيستحق عليه أجره ذاك. وأغلب الظن أنه كان يقف، إن قليلا وإن كثيرا، ليتذكر ما قام به من عمل أو أعمال، قبل أن ينفق شيئا من هذه النقود التي أحرزها بهذا المجهود اليسير.

رأي يوما جمالا كثيرة تحمل حبوبا لرجل من الجيرة. وعلم أنها جميع غلة أراضيه. فقام في نفسه ما جعله يظن الرجل ثريا، وإذ حدث والدته بما ظن، أنكرت عليه هذا الظن، فاستزادها ايضاحا، وهو في حيرة مما سمع، فقالت: «هذا الرجل يتفق أكثر من دخله، ويستدين على كثرة ما يملك. ومن كان هذا عيشه، وهذه حاله، كان مكانه في صف الفقراء».

وها قد مضت الأعوام الطويلة، وصاحبنا لا يقرأ في (البيان والتبيين) حديث ابان بن الوليد واياس بن معاوية، إذ قال الأول للثاني: («أنا أغنى منك»، فقال اياس: «بل أنا أغني منك». قال ابان: «وكيف ولي

كـذا وكـذا وعـده أمـوالا، قـال: «إن مكسـبك لا يفضـل عـن مؤنتـك، وكسـبي يفضـل عـن مؤنتـي».

لا يقـرأ هـذا الحديـث إلا ذكـر رأي والدتـه ذاك وطلـب لهـا الرحمـة. وربمـا سـقطت مـن عينيـه دمعـة، فمسـحها في صمـت واجـم، وحـزن كظيـم.

ويذكـر الصبـي خلـة أخـرى، أرادتـه عـلى أن يـدرج عليهـا، فكانـت حـين تعلـم بحاجتـه إلى شيء مـن هـذه الأدوات المدرسـية تقـول: «في مقـدورك أن تبتـاع مـا يعـوزك مـن الأفـلام بثمـن رخيـص، إذا أنـت اشـتريتها جملـة، وليـس عـلى مقاديـر صغـيرة متفرقـة. إن البائـع يؤثـر أن يبيعـك اثنـي عـشر قلـما جملـة بعـشرة قـروش، عـلى أن يبيعـك القلـم الواحـد بقـرش واحـد، حـين تبتاعهـا قلـما قلـما، وحينـا بعـد حـين، وأنـت تربـح بهـذا التدبـير قرشـين اثنـين، وتوفـر مـن وقتـك، وتقتصـد مـن طاقتـك وجهـدك، فحسـبك أن تذهـب مـرة واحـدة إلى حانـوت البائـع: في حالـة شراء الجملـة، بـدلا مـن عـشر مـرات تتجشـم فيهـا مشـقة الذهـاب إليـه، في حالـة الـشراء بالأشـتات».

ولشـد مـا كان يعتـز بهذيـن القرشـين يربحهـما مـن بائـع القرطاسـية. واذ يقـص أحبانـا حديـث ربحـه هـذا عـلى لداتـه مـن التلاميـذ؛ كأن يحـس شـيئا مـن الشـعور بالتفـوق، ولكنـه كان عـلى كل حـال يذكـر في سره فضـل أمـه.

وذات يـوم جاءهـا عجـلان يحدثهـا في غـير أنـاة، وبصـوت اختلطـت نبراتـه، وتزاحمـت ألفاظـه، وشـذت أوتـاره، فاسـتمعت إلى مـا يقـول، والى آخـر

مـا أراد أن يقـول: ولم تتركـه يمـضي، بـل أخـذت بيمينـه. ودخلـت بـه إلى غرفـة، فعمـدت إلى مزهـر كان عـلى صـوان للثيـاب فجردتـه مـن قميصـه وشرعـت تنقـر أوتـاره عـلى عجـل، وكانـت غـير متزنـة، ثـم أصلحتـه وأخـذت تنقـر الأوتـار مـن جديـد، نقـرات خاصـة، وانقطعـت ملتفـة إليـه، فسـألته رأيـه فيـما يؤثـر أن يسـمع مـن هـذه الأصـوات، فآثـر صـوت الوتـر المتـزن. وحينئـذ لفتتـه إلى هـذا الفـرق بـين الأصـوات في الحديـث، والى مـدى تأثـيره في السـمع، وجعلتـه يعلـم بـأن الكثـير مـما يفـرق بـين النـاس، أو يقـرب مـا بينهـم، يرتـد إلى وقـع الصـوت؛ فـإن كان جـافي النـبرة، شـاذ الوتـر، كان الجفـاء وسـوء التفاهـم، وإن كان صافيـا هادئـا، كانـت الألفـة وكان التفاهـم، وكانـت الصـلات الطيبـة، واذ عـرف صاحبنـا هـذا، وأدركـه وفطـن لـه، صـار يحـرص عـلى أن لا يجـد السـامع جفـاء أو شـذوذ في صوتـه.

وامتـدت عنايـة الام بـه، وامتـد سـهرها عليـه، إلى هـذه الامـور الصحيـة، فحرصـت عـلى أن تلقنـه ضرورة أداء حـق الطعـام؛ مـن حيـث حاجتـه إلى المضـغ واللعـب، كـما حرصـت عـلى تلقينـه حـق البـدن عـلى الإنسـان، فيـما يطلـب مـن النظافـة والراحـة والرياضـة. فهـل كانـت في هـذا كلـه بصـيرة فـن الحيـاة؟ هـذا الـذي غـاب علمـه عـن الأجيـال السـالفة، ولا يـزال غائبـا عـن جمهـرة الآبـاء في الأسر، والأسـاتذة في المـدارس، والـذي مـن حقـه أن يلقنـه أطفـال اليـوم مـع الحـروف الهجائيـة بـل قيـل الحـروف الهجائيـة.

ولكـن مالنـا وللدخـول. فيـما لا يتصـل بحديثنـا. فنحـن في سـبيل ذكريـات بـين الصبـي وأمـه. ويريحـه اليـوم أن يجهـر بحقهـا الكبـير، وبأنـه لا يعـرف شـيئا مهـما عظـم وجـل، يوفيـه أو ينهـض بـه، ولقـد امتـد بـه العمـر،

وطـال هـذا الامتـداد، ولا يـزال يشـعر بحاجتـه إليهـا فيـما بينـه وبـين نفسـه؛ فيـذرف الدمـع أحيانـا، وأحيانـا يتعـزى بعـض العـزاء اذ يـردد هـذه الأبيـات:

ليـس في الدنيـا صنيـع كصنيع الأمهاتِ

تـشرف الأم عـلى المـو ت لتأتي بالحياة

إنها قلب سـخي قد تناهى في الحيات

فاذكروهـا أيهـا الأبنـاء فوق الذكريات

وأكرموهـا في الحيـاة وارحموهـا في الممات

-٣-

ويستأنف صاحبنا ذكرياته، فيرتد بها إلى أبيه، وهي هنا شاحية حزينة ربما أشجتك فذكرت معها قول شوقي:

إنما الدنيا شجون تلتقي وحزين يتأسى بحزين

وربما وعظتك، فغيرت من صور الأشياء في نظرك، وربما أثارت دواعي الأسى في نفسك، أو أحدثت عهدا في قلبك جديدا.

ولكن من أين يبدأ حديث هذه الذكريات؟؛ فهي في رأسه ليست متسلسلة الوقائع ومتناسقة الصور، مؤتلقة الألوان، فيجري فيها الحديث سلسلا هينا يسيرا، لا تكاد تتناوله حتى تمضي فيه بلا عسر ولا مشقة. ولعل الخير في أن يعود الصبي إلى صورة أبيه في ذهنه، فينقلها وأن تقادم عليها العهد، وامتد الزمان. فلقد كان في هذه الصورة منفردا بنفسه، غريبا في دنيا الناس، محبا لولده، محبا لأهله، ومحبة للناس جميعا؛ يحب بقلبه، ويحب بيده، وبحب بجماله، ويريد الخير لمن افتقر إليه، ويسعى بالبر لمن قست عليه أيامه، وأساء إليه حظه، أو قل المجتمع على التحقيق.

وكان يقول دائما: زمن الحياة قصير، لا يتسع إلا للحب، والا للتساهل والتسامح. وأنت حين تخلط نفسك بنفسه، تجده إذا قال فعل، وإذا وعد أوفي، وإذا حدثك لم يحدثك إلا فما هو حق عنده، والا فيها هو صدق عنده، ويغلب عليه أن يصدق ما يسمع منك، وأن يعلل الأشياء

مـن جوانبهـا الخـيرة، ولكنـه عـلى اسرافـه في هـذا كلـه، لم يجـد في دنيـا النـاس مـا كان يظـن. فالحـب في نظـره هـو العـوض، أو هـو الثمـن الـذي يجـب أن يبـذل للحـب ولا شيء غـيره. والصـدق هـو البديـل الـذي يجـب أن يبـادل بـه الصـدق ولا شيء غـيره. والنجـدة مـن حقهـا أن تقابـل بالنجـدة. والخـير بالخـير، والـبر بالـبر، ولا شيء غـير هـذا.

ومـا كان ليتصـور، أن الاحسـان قـد يقابـل بالإسـاءة، وأن الصديـق قـد يخدع، والقريـب قـد يطمـح، وأن بـين النـاس مـن يسـتعير مـن الأفعـى ملامسـها وسـمها، ومـن الثعلـب ختلـه وغـدره، ومـن الوحـش أظفـاره ونابـه، وكأنـه كان عـلى فطـرة عامـر بـن عبـد اللـه بـن الزبـير: فلقـد قيـل عنـه أنـه تـرك المسـجد ذات يـوم، وكان قـد أخـذ عطـاءه، فلـما صـار في منزلـه وذكـره، بعـث رسـولا ليأتيـه بـه، فقـال لـه: «وأيـن تجـد ذلـك المـال»؟ قـال: «سـبحان اللـه أو يأخـذ أحـد مـا ليـس لـه». وغالـب الظـن أن والـد الصبـي كان يـرى الدنيـا عـلى ضـوء هـذه الأبيـات

أرى الحياة بلا سـعي ولا عمل لصالح الناس تقصيرا وإجراما

ولا أزكى أخـا إن عـاش في صمـم عـن النـداء وأن صلى وأن صاما

فأنت إن عشـت للمعروف تصنعه جزاك ربك ايمانا واكراما

وقـل همـك في الدنيـا وإن نـشرت هموم دنياك أوجاعا وآلاما

فعـش كريمـا يـداوي البؤس مطلعه ويغمر الناس إحسـانا وإنعاما

ولكنـه رجـع ذات مسـاء، أو ذات صبـاح، عـن حلمـه هـذا، أو مـن غفلتـه

هـذه، بالخيبـة المريـرة، والألم الممـض الـلاذع، فلقـد تكشـفت الدنيـا لعينيـه، فـإذا هـي دون مـا قـدر، واسـوأ مـما قـدر، وإذا الطبيعـة البشريـة ترفـض أن يكـون لهـا مثـل هـذه الطيبـة، وهـذه الحـلاوة، وإذا هـم النـاس مـصروف في الغالـب إلى التمويـه بالألـوان الغـرارة، والأصبـاغ البراقـة الخادعـة، وإذا هـو يكـره الدنيـا صادقـة، كـما أحبهـا صادقـة، ويـرى فيمـن عـرف وعـاشر وأعـان، غـير مـا حسـب مـن قبـل، فأنـت تـراه يعيـش اليـوم راضيـا سـاكنا، ولكـن هـذا الرضـا، وهـذا السـكون كوجـه المـاء لا يـدل عـلى مـا يضطـرب في الأعـماق.

وينتقـل محدثنـا إلى حظـه مـن أبيـه، فلقـد كان يريـده عـلى أن يتعـرف دخائـل الحيـاة عـلى حسـاب مرارتهـا، وأن يتـدرج في هـذه المعرفـة معتمـد عـلى تجاربـه، وليـس عـلى الآخريـن، وأن يتتلمـذ عـلى أخطائـه حـين يخطـئ، وعـلى فطنتـه ولفتـات ذهنـه حـين يشـهد أغـلاط غـيره. ولعـل هـذا مـا حفـزه عـلى أن يسـهل للصبـي وسـائل المخالطـة، وفـرص الاسـتماع والمشـاهدة.

ومـن كانـت هـذه طبيعـة تفكـيره، فليـس هـو بـالأب الـذي يتجهـم الأخطـار غـير الآثمـة، يقـع فيهـا بقـوه، فـترده إلى الأخـذ بوسـائل اللـوم تـارة ووسـائل العنـف أخـرى. وإذن فليـس غريبـا ألا يحمـل الصبـي غـير خـير الذكريـات لأبيـه، وهـو الآن يشـعر بالحـزن بالـغ شـديد عـلى أنـه مـات قبـل أن يبلـغ ابنـه القـدرة عـلى الوفـاء، وإن كان لا سـبيل إلى النهـوض بحقـوق الآبـاء مهـما عظمـت الخدمـة، وجـل التعظيـم، وتفانيـت أو تناهيـت في إكـرام أبيـك.

-٤-

وليس في كل ما ذكرنا حتى الآن ما يعطيك صورة، تامة للرجل، فأنت ما زلت لا تعلم بأن الصبي حين وعى، كان أبوه قد قعد عن الضرب وراء الرزق؛ وأخذت آفاقه تضيق، وظروفه تتحرج.

ولعلك تجد في قصته ما يثير غيظك وحنقك على الطبيعة البشرية، فقد استهدف لطمع ذوي قرباه، فسلبوه ما كان يعول عليه من عقار ضئيل ورثه من أبيه، ثم غدا عرضة لكيد واحد من أصدقائه، فترك العمل الذي يزامله فيه، أنفة وزهد، ورضي لنفسه بهذا الحرمان من مورد رزقه، غير آسف على ما فعل، ولا نادم على ما أقدم عليه، فالرجل الحر الأصيل في نظره خليق به أن يترك الأرفق بحاله، إلى الأجمل والأمثل بها. وهكذا لم يتبق له ما يستعين به على تكاليف الحياة، إلا صبابة من أصل مال ضحل يتبلغ بها، ويحيا عليها.

وظني أنك تحب أن تعرف في البدء قصة ذوي قربه، فيرجع بك الصبي لا إلى أبيه، بل إلى جده. فلقد كان هذا الجد وأخ له يعيشان على مائدة واحدة، ويشربان من كوب واحد، فما كان في البيت من متاع، وللأسرة من عقار، وما كسب الاخوان، ورزقا من نشب، فهو للاثنين. وظلا يعيشان على هذا الوفاق الجميل، إلى أن ماتا، فانتقل المال والعقار إلى من خلفا من بنين وبنات وأزواج.

أما العقار، وهو عقدة القصة، فكان تسجيله عند الحكومة للأخ الأكبر، ولم يكن هذا لأنه يملكه دون أخيه جد الصبي، بل لأن الأول يتعاطى

ضـمان عشـور القـرى، عـلى نسـق مـا جـرت عليـه الأمـور أيـام سـلطان الـترك عـلى العـرب. وكان لا بـد مـن تقديـم كفالـة عقاريـة تتطلـب مراسـم قانونيـة، يجـيء الكفـلاء مـن أجلهـا إلى دواويـن الحكومـة. والأخ الأصغـر عـزوف بطبعـه عـن قـرع الأبـواب ولـه في التجـارة مـا يأخـذ عليـه وقتـه، ثـم هـو لا يريـد في حيـاة أخيـه أن يكـون لـه حـق معلـوم.

ولكـن هـذا الاستسـلام مـن الجـد، كان بـلا عـلى والـد الصبـي حـين طمـع فيـه ذوو قربـاه، وكانـت الكلمـة العليـا لقضـاة يعيشـون عـلى الجهـل والشـهوات. فلقـد ظـل يطالـب بحقـه في المحاكـم، ويناشـدها هـذا العـدل الضائـع، ويـتردد عـلى أبوابهـا أعوامـا طـوالا، وبـذل مـن المـال مـا كان في أشـد الحاجـة إليـه. ثـم نظـر فـإذا هـو بعـد هـذا الجهـد، وهـذا البـذل، قـد خـسر حقـه، وأضـاع عقـاره، فسـاء ظنـه في القضـاء. كـما سـماء ظنـه، وخـاب رجـاؤه في صـلات القـربى، وحقـوق الأرحـام هـذه التـي يقدسـها النـاس بألسـنتهم وليـس في قلوبهـم.

وتقدمـت بالصبـي سـنه، وعمقـت نظرتـه، ووعـت فطنتـه، وطافـت بـه، ذات يـوم، ذكـرى مـا قصصنـا عليـك، فأنشـد يقـول:

فكرت فيما يزجر الإنسـان عن ما قد يسيء به إلى الإنسـان

فوجـدت في القـربى حمائـل طامـع ووجدت في الأخلاق كل هوان

ووجدت فعل الشر فيه سـلامة ووجدت فعل الخير فعل جبان

ووجدت فحش القول لصون الفتى من إن يوالي الناس بالإحسـان

ووجدت هم الناس مصروفا إلى التمويه بالأصباغ والالوان

قدم الزمان وما تزال طباعنا فعلا تمثل شرة الحيوان

ذلك ما كان من أثر القصة في نفس صاحبنا ولعلك خالفته فيما ذهب إليه، أو لعلك وافقته فيه، ولكنك على كل حال تسلم معه فيما تظن، بأن أحكامنا كثيرا ما تمر بالعاطفة قبلما تمر بالعقل.

-٥-

والآن لعلك شيق النفس إلى العبرة أو الطرافة في حديث الصديق. فقد علم الصبي بأن أباه اضطر، بعد ما خسر دعواه، إلى اعتناق مذهب العيش المر أو الحلو على حساب الحكومة. فهو اليوم موظف. ونحن في عهد خليفة المسلمين، وفي إحدى هذه المقاهي التي يرتادها الناس لإرجاء الوقت، ودفع الملالة، واستقصاء الأخبار. وأنت ترى في ركن منعزل منها عصمة جمعت الظروف أفرادها على أحلام المجد العربي.

ويقبل على العصبة شاب في وقار الشيوخ، وسمت الخيرين، قصير الشبر، هادي الحركة، رزين الاشارة، خافت الصوت، يتحدث إليك فتحس ترفقا وريثا وأناة، ولم يلبث أن صار واحدا من اخوان المصيبة؛ يشرب من كأسهم، ويتحدث بحديثهم، ويشترك في تقديس مثلهم. فأحبوه وأعزوه وأكرموه. وكان والد الصبي أول من بادر إلى مصادقته. وليته تريث وتأنى. ولكن هذا الرجل مفتون بالصداقة، يقدسها ويرى فيها من المعاني ما لا يراه غيره، ولم يك ليرضى بالمودة إلا كما شرعها

أبـو تمـام:

من لي بإنسـان إذا أغضبته وجهلت كان الحلم رد جوابه

وإذا افتقرت إلى السـلاف شربت من أخلاقه وسـكرت من آدابه

وتـراه يصغـي للحديـث بسـمعه وبقلبه، ولعله أدري به

وتمـر الأيـام فـإذا والـد الصبـي وهـذا الصديـق موظفـان زميـلان في مصلحـة واحـدة، تحـت امـرة رئيـس واحـد، وإذا الصداقـة تتأكـد والاخـاء يـزداد، وإذا هـما في الليـل والنهـار لا يـكاد أن يفترقـان.

وتـدوم هـذه المـودة زمنـا، عـلى أصفـى مـا تكـون المـودات، ثـم يكفهـر الجـو، ويفيـق إخـوان العصبـة، فـإذا هـم تحـت المراقبـة، تترصدهـم العيـون، وتمـشي الشرطـة المتلصصـة في آثـاره. وتتـأزم الحـال، ويتحـرج الموقـف، وليـس مـن يعـرف مـأتى هـذه العمـرة الطارئـة.

ويحـس صاحبنـا شـيئا غـير طبيعـي يتصـل بـه حتـى في عملـه. فالرئيـس أخـذ يتجهـم لـه، وأمـوره صـارت إلى التعقيـد، ثـم هـو إذا حـدث صديقـه في هـذه الشـؤون ألفـاه يشـغب عـلى الرئيـس ويطعـن فيـه، وينتقـده ويسـتخف بأمـره، ولكنـه كان، مـع هـذا كلـه، يـرى الوفـاق والتفاهـم بـين الرئيـس والصديـق فيعجـب ويحـار ويمـشي الشـك في صـدره.

ورفـع السـتار ذات يـوم فـإذا الصديـق ينقـل إلى الرئيـس مطاعنـه فيـه، عـلى أنهـا مـن صنـع والـد الصبـي، ويتصـل بالشرطـة ويتقاضـاه أنبـاء اخوانـه، ويتقاضاهـا أجـرا عـلى هـذا العمـل الشريـف! وتنقطـع الصلـة قطعـا عنيفـا،

وينفرط عقد الاخوان، ويسحب الزمان ذيله على ما كان من صداقات، واتحاد في الآمال والأشواق.

وكان من أمر صاحبنا والد الصبي أن زهد في عمله فتركه غير آسف عليه. وأما صديقه، فصار إلى حظ سعيد، وحمد السوق حين باع الشرف. وجاء ذات يوم إلى صاحبه، كأن لم يصنع بالأمس شيئا، ولكن الرجل لوى بوجهه عنه ومشى يقول: لئن قلمت أخلاقك هذه بدنياك، فهي قد قعدت بضميرك وشرفك ودينك.

والآن بعد ما بلغ الصبي هذا الحد من حديثه، فإنه ليشعر بالإشفاق يملأ صدره على أبيه، ويتخيل نفسه مصغيا إليه، وهو يهمس متسائلا عن سر هذه الحياة التي إنما تثقل، في الأكثر، على الكريم يلتمس الخير، وينشد الحق، ويجهر بالصدق، وتهون، في الغالب، على اللئيم يصطنع النفاق، ويمشي في التجسس، ويثرى بالسرقات، ويعيش على أنين الفقراء والمساكين، ويمن من بعد على الوطن بما قدم بين يديه!

-٦-

ويتقدم الوالد في السن، ويركن إلى الراحة، ويعيش راضيا قانعا بحظه، ولكن مرارة الخيبة تعاوده أحيانا، فتنزل به الهم، فيفر بنفسه وولده إلى الريف عله ينسى، وعل الغلام يقف على مشاهد العبر؛ فهمه كان أن ينال ابنه أكبر الحظ من على هذه الطبيعة البشرية المحيرة!

وهـذه زيـارة يقـوم بهـا للغرضـين. فنحـن اليـوم في القريـة عـلى حـدود الصحـراء، في ضيافـة الشـيخ علـوش. وأنـت تـرى الغـلام يمـرح ويطـوف في البسـاتين والحقـول، ويصعـد في الجبـل، ويـشرف مـع المسـاء عـلى منظـر بهيـج، في سـهل فسـيح منبسـط بـين الجبـال، تحتضنـه لتـدرأ عنـه الأذى.

فالهـواء، هنـا، يهـب عليـلا لينـا مصفـى، يبعـث النشـاط، ويوقـظ الخيـال. والنـور ينسـاب متـلألأ، يغمـر الأرض، ويفيـض عـلى الكـون، فترتـاح لـه النفـس، وتنشـط لـه الـروح، والميـاه تجـري رائقـة عذبـة في هـذه الجـداول والأقنيـة، المتعرجـة بـين الخمائـل والمـروج، صقيلـة الصفحـة، صافيـة الأديـم، حتـى أنـك لـترى في صقالهـا وصفائهـا، رسـل نفسـك عـلى أديـم وجهـك، وحتـى أنهـا لتلهمـك أسرار العصـور، وتوحـي إليـك بمعـاني الـبراءة والطهـر، وتطلـق لسـانك بالتسـبيح.

شـهد الغـلام هـذا المنظـر في موقفـه ذاك، كـما شـهد إقبـال المسـاء.. فـإذا الخـلال تمـشي عـلى الأرض، في الطليعـة مـن مواكـب العـشي، فتغشـاه للسـنة رقيقـة تمتـد وتتطـاول في رفـق وريـث، ثـم هـا هـي ذي المواكـب تطـل وتتقـدم في أمـواج دكنـاء قائمـة، فـلا تلبـث أن تحـول إلى طبقـات، بعضهـا فـوق بعـض، فتراهـا تتكاتـف وتترامـى وتنبسـط في شيء مـن المبـادرة، وشيء مـن الهجـوم والمباغتـة، فـإذا الظلمـة تقبـل حالكـة ثقيلـة صفيقـة، تلـف كل كائـن، وتطمـس كل لـون، وتـلاشى كل بـارز، وتغمـر الأفـق فيفيـض الهـدوء، ويسـود الصمـت منـه وتسـكن الطيـور إلى أوكارهـا، وتنـام الحيـاه، إلا أضـواء النجـوم في الآفـاق السـحيقة، وإلا هـذه الأصـوات العريضـة، تنبعـث الفينـة بعـد الفينـة وعـواء ترسـله الـكلاب حـول مضـارب البـدو،

المنبثة في السهول وعلى ذيول الجمال، وإلا هذا التجاوب النحيف من بنات آوى، وهذا النقيق الملحاح من الضفادع؛ وإلا هذا الحرير الأنيس من مياه رأس العين..

لف الليل صاحبنا، وهو يفكر في أبيه هذا الذي فر به وبنفسه من المدينة إلى هذه القرية، متعبا مكدود خائر النفس، يلتمس الهدوء والراحة، فلقد أجهد نفسه عاملا، وأحس أوجاع الناس مشفق ومواسيا، وأحسن الظن، وصدق العهد، ولكنه عاد بالخيبة حين شهد هذه الأخلاق المعقدة في خبث ومكر، وهذه العقول الملتوية في غرور وكبرياء، وهذه النفوس التي لا تعرف الخير، ولا تطلبه إلا لذواتها، والتي تمارس النفاق ممارسة سهلة ليس فيها عسر ولا مشقة.

فكر الصبي في هذا كله، وفكر فيما عساه يرى في ضيافة الشيخ علوش، كما فكر في هذا الاسم المضحك. وكانت الريح قد أخذت تعصف زافرة أنفاس العشاء الباردة، فلم يملك من نفسه إلا أن بكر راجعا إلى حيث كان أبوه، فيلقاه منفردا يردد أغنية الظلام هذه:

يا ظلام الليل، عسعس، أنت أنسى

فيك يا سجن الورى، أخلو بنفسي

فأجوب الأفق تحليقا بهجسي

وأرود الغيب منسابا بحسي

فيـك يا ليل، ارتدادي نحو قدسي

فيـك، يا ليل، انطلاقي من قيود

صاغها الإنسـان ظلما من حديد

ودعاها العرف آداب الرشيد

وارتضاها أن تداجي بالسـجود

آيـة التقديس، آبت آي رجس

أنـت مثل الحق، غيب في البرية

مجهـل الآثام، والنجوى الخفية

سـافر، يا ليل قف، تعري السجية

من كسـاها، علها تغدو حية

أنـت، يا ديجور، حقا ثوب قس

ويستسـلم صاحبنـا إلى النـوم في ليلتـه تـلاش، وهـو يفكـر فيهـا سـمع مـن أبيـه.

وأصبـح الصبـاح، فـإذا القـوم يتوافـدون، عـلى عـادة النـاس في الريـف، للسـلام عـلى الضيـف، ويأخـذون في الحديـث، ويفيضـون فيـه خاليـة مـن القصـد والتفكـير، ولكنـك وأنـت تسـتمع إليهـم، تلمـح أحيانـا ومضـات

لامعة من الذكاء. ولا يفوتك الشيخ فتراه يروح ويجي مرحبا محتفلا، باشا طلقا، خفيف الحركة، رشيق الاشارة على تقدم سنه. يحدثك فيحسن الحديث، ويرحب فيجيد الترحيب، ويسوق هذا وذاك ألوانا طريفة تروقك وتسرك؛ وإن كنت لا تجد للقلب صوتا ولا للصدق نبرة فيما استمعت من الرجل. وأنت إن تأملت وفكرت فيه، أحسست أنك في حضرة محمل بارع، أو أمام رجل الساعة بالمعنى الذي يعرفه الناس في أيامنا...

ويعلم الصبي بعد أن كبرت سنه، وزادت بالناس معرفته، أن شيخنا زار الأستانة، ولم يلبث إلا قليلا ثم عاد قاضيا محترما، فتسنى له أن يجمع، في ظل منصبه هذا، ثروة ليس من يعلم أجاءته من باب الاقتصاد والشح، أم من هذا السبيل الذي يعيش عليه بعض القضاة، ويعاني منه الحق ما يعاني، وأي من الناس لا يخرج عن شيء من ماله، حين لا يعرف إلى النجاة سبيلا غير هذا السبيل؟ ثم أي منهم يستطيع أن يفتح فاه، أو أن يومض إلى شيء مما أعطى، وهو يعلم بعقاب القانون؟ ولعلك لا تبعد عن الصواب كثيرا، إن ذهبت إلى أن معاقبة الراشي -وإن كان لها ما يبررها عند المشترعين- لا تخلو في الواقع، من معنى الحصانة، للقضاة العابثين بالحقوق. ولكن هذا لا يعنينا الآن كثيرا؛ فنحن نعرف أن لا قبل للكثيرين بالنزاهة، ولا المشترعين بالإحاطة؛ وإذن فالخير لنا أن نعود إلى ما كنا في صدده.

ويأخذ الغلام منذ ضحى يومه ذاك في التطواف في القرية، فيتعرف إلى بعض أهلها، ويستمع إليهم متحدثين، ويرى الفرق الكبير بين

العيش في المدينة والعيش في القرية؛ فهذه حجرات قلما دخلها الهواء والنور والشمس، وقلما عرفت النظافة أو الترتيب، وهذه أمتعة خلقة، وأسمال بالية، وهذه آنية قذرة ملقاة هنا وهناك، وهذه حيوانات تعيش مع الناس في مساكن واحدة، وهذا جهل فاش، وفقر حزين، وعرق متصبب، وجهد متواصل على غير طائل.

واليوم وهو يستعرض حياة القرية في مخيلته، يتمنى لو عجل الزمان، فبلغ بالوعي في قومه، أن يروا من العار عليهم أن يجد الواجد عندهم، مثل هذه الفروق العظيمة بين المدينة والقرية. فأنت إن رأيت عند الأمم السباقة فرقا بين المدينة والريف، فلست تراه إلا في هذا الترف والنعيم؛ وليس في النظافة ووسائل الحياة الضرورية.

ويعرف الصبي من أهل القرية، أنهم يتوقعون زيارة حاكم المدينة في الغد إذا أصبح الصباح، ليتفقد في عرف المنطق الرسمي شؤونهم، ويشهد أحوالهم، وينظر في مصالحهم، ويوفر عليهم من خير الحكومة ما يعينهم على حياتهم؛ أما في الواقع فلينال حظه من التعظيم، وحظه من الترويح عن النفس، وليسمع الثناء ويصغي إلى الإقرار بأياديه الحسنى، ثم هو لا يتوقف عن خيل وإبل مهدى إليه وأشياء غير هذه وتلك.

عاد صاحبنا إلى بيت الشيخ فرآه آخذا في الاستعداد لاستقبال الحاكم، ولكنه دهش حين سمعه يعدد من مساوئه وعيوبه ما لا يجري

على اللسان. وإلى جانب هذا وذاك وجده لم يغفل عن كلمة يعدها للترحيب بالزائر الكريم.

وما ذكر الغلام هذا الذي كان الشيخ فيه، إلا أغرق في الضحك، لا يملك نفسه ألا يفعل؛ فهذا صوته المريض لا يزال يردد ما أعد وزور من هذا الكلام المنافق، وأكبر الظن أنك تشارك صاحبنا في الضحك حين تسمع الشيخ يتمرن على إلقاء هذه العبارات:

«يا صاحب السعادة، يا ولي النعم!

لقد أراد الله لنا الخير بولايتكم. فحلت البركات، وازدادت الخيرات، وأورقت الصخرات...، وساد الرخاء، وازدهر البلد بالعمران. جزاكم الله خير الجزاء، وأدام علينا ظلكم، وأمد في حياتكم.

ولم يقف الشيخ عند هذا الاستعداد، وكيف يقف عنده، وهذه فرصة للغنيمة، وهو قناص، وليس عليه إلا أن يقول للقوم: هذا الحاكم رفيع القدر، عالي الجناب، ولا بد من المزيد من الاكرام، والمزيد من الاحتفاء، والمزيد من النفقة. فيبادرون إلى المعونة والمساهمة.

وتم للشيخ ما أراد، فقد جاءه المزيد من المال والمزيد من الضأن، وصار إلى هدوء البال حين كملت الأهبة، ولم يبق إلا أن تكتحل العيون بلقاء هذا الذي يسمونه جلال بك. ويأتي الغد فترى القرية وقفت للاستقبال، وصاحبنا الشيخ في الطليعة، ولو أنك رزقت علم ما في السرائر لما وقعت على عاطفة حب، أو شعور احترام لهذا الحاكم؛

ولكـن النـاس سـبقوا إلى الاسـتقبال فانسـاقوا، ودفعـوا إلى المسـاهمة في نفقـة الضيافـة فسـاهموا عـلى فقـر وحاجـة.

وتمتـد الأبصـار في موقـف الاسـتقبال، فـإذا الخيـل تطـل، والركـب يهـل، فيمـشي الحفـل في ركاب القـادم الكبـير إلى بيـت الشـيخ. وأنـت تنظـر فتجـد حاكمنـا طويـل القامـة، عريـض المنكـب، بـارز الكـرش، ضخـم الـكلاكل، تكفـأ في مشـيته وهـو مقبـل عليـك، كـما لـو كان يقتلـع رجليـه اقتلاعـا، أو يمـشي عـلى أرض رخـاخ، فتقـف منـه أمـام هـذه الضخامـة القلقـة تطالعـك بانطوائهـا عـلى كثـير مـن الصلـف والزهـو، فـلا تـكاد تملـك نفسـك مـن أن تبتسـم في سـخرية. ثـم تسـتمع إليـه يتحـدث، فـإذا هـو يتشـدق وتفاصـح، ويلقـي طائفـة مـن هـذه الكلـمات التـي اتسـعت لهـا اللغـة التركيـة، ولم تتسـع لهـا الأذواق والألسـنة، فتقـف فيهتبـل الفرصـة، ويـدلي إليـك بعلمـه الواسـع، وعرفانـه الـذي لا ضريـع لـه فيـما يظـن هـو نفسـه.

ويصـل الموكـب إلى البيـت، ويقـف الشـيخ، فيجيـد الترحيـب، ويفـتن في إلقـاء مـا كان قـد أعـد مـن كلام المنافقـين؛ فيطـرب الحاكـم ويتهلـل وجهـه بـشر، فهـو ولي النعـم حقـا، ومنـاط الرجـاء حقـا، والنـاس أتبـاع لـه وعبيـد.

وجـاء دور القـوم مـن جماعـة الشـيخ، فائتمـوا بـه وكالـوا المـدح جزافـا، والنفـاق كيـلا وافيـا، وأظهـروا الخضـوع، واعترفـوا بالعبوديـة، ولـو أنـك رأيتهـم وهـم يتبـارون في تحقـير أنفسـهم، لتنـدى جبينـك خجـلا، ولهانـت الدنيـا عليـك، وأنـت تشـهد الصغـار يـرضى بـه النـاس، كان نفوسـهم هانـت ورخصـت، أو كان هـذا النفـاق الطـارئ صـار سـجية لئيمـة في معظـم النـاس.

شهد الغلام حفلة النفاق هذه، ولا يزال يذكرها على طول ما مر عليه من الأعوام، ويشاهد روايتها تتكرر على مسرح الزمان. وأغلب القوم لهم فيها أدوار.

وبعد أفلا تعذر صاحبك، إذا تساءل اليوم عن السبيل إلى تطهير النفوس من هذا الذي نحن فيه؟ فإنه لطويل الحزن. وسيظل طويله إلى أن يجد الجواب عن سؤاله هذا، أن قيض له أن يعيش إلى ذلك اليوم حين يكون إعطاء الجواب ميسور للكثرة منا. فهو وإن كان طويل الحزن، إلا انه طويل الأمل، وشديد الإيمان بالعودة إلى مثل اليوم الذي قيل فيه لعمر رضي الله عنه، لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه. ذلك يوم الكرامة حين حطم الناس فيه رؤوس الأصنام.

ويذكر الصبي خلة من الضيف، فقد كان إذا أنس من مضيفه غفلة، أخرج له لسانه، سخرا منه واستهانة بأمره، وهزءا به، كما كان أحيانا إذا أقبل عليه مقبل من بعيد، أخذ ينتقد مشيته، أو لحيته، أو فيافته أو أي شيء آخر يرد على خاطره. ثم حين يقترب المقبل كنت ترى الحاكم يحتفي به ويظهر عطفه عليه؛ فكان الناس يدهشون من هذا، ويبتسمون آسفين.

وتنتهي الزيارة في يومنا ذاك، ويشيع الحاكم بالتعظيم كما استقبل بالتعظيم، ولكن الصبي يذكر جيدا، أنه لم يسمع منه سؤالا عن مظلوم. ولا شاهد منه أخذ بيد منكوب، أو اكتراثا بأي من هذه الأمور التي يهتم بها الحاكم الساهر المنشئ الباني. ومنذ يومه ذاك،

شاه وجه الدنيا في نظره، إذ عرف أن من الحكام والرؤساء من يعيش ويترف في العيش على حساب العرق المتصبب من الأجسام المنهوكة، والأدمع الجارية من عيون الفقراء والمساكين، وأن ادعاء السهر على المصالح العامة، هو الوسيلة الخبيثة لتخدير الأعصاب.

ويعود الشيخ إلى بيته من وداع الحاكم، فإذا هو غانم ظافر، فقد أكد صلته بولي الأمر، وزاد تشبه بهذا المال الذي نكب به أهل قريته، وعلا قدره عند نفسه، بما قال رياء وكذبا، وما قيل له سخرية وتندرا. ولعلك تبسم أو لعلك تعجب أشد العجب حين تعلم بأن هذا الرجل قد اعتاد أن يضحك مع الضاحكين، وأن يبكي مع الباكين، وأن يصادقك وهو لا يحبك. ويتزلف إليك وفي نفسه منك أشياء. وربما فكرت وأطلت التفكير إذ تسمعه ينشد أحيانا قول الشاعر:

ألبس حياتك بأحوال المحيط وكن كالماء يلبس ما للظرف من جدر

وإن أبيت فلا تجزع وأنت بها عار من الأنس كاس من الضجر

هذا هو الشيخ علوش، وهذا فنه في الحياة. ولكن ما هو رأي والد الصبي؟ فنحن لا نعرف أنه لقن ابنه يوما شيئا من الرأي وقصاراه أن يضع يده على ملامس العبر ودواعي التفكير، وموقظات الوعي. ولكن صاحبنا أدرك مذهب أبيه، حين سمعه ينشد هذه الأبيات، بينما كانا قافلين إلى المدينة:

لما رأوا دنيا الزمان لعابث مستهتر أو مكثر لنفاق

أخـذوا عـلي ترفعـي بنقيبتي عن كل ما يأتي على أخلاقي

دنيـا الزمـان، مغانم ومرافـق تفنى، ودنيا الخلق مجد باق

الآن وقـد انتهـى صاحبنـا إلى هـذا المـدن مـن حديـث أبيـه، يقـف هنيهـة ليعـترف بأنـه اقتـصر في العـرض عـلى مـا ظنـه خلـة طيبـة، أو حسـبه عظـة حسـنة، في جميـع مـا اتصـل بأبيـه وأمـه مـن هـذه الذكريـات، وهـو يـدرك أن لا كـمال لإنسـان في دنيـا النـاس هـذه، وأن البـون كثـيرا مـا يكـون شاسـعا بـين المثـل العليـا والطبيعـة البشريـة الغاليـة.

-٧-

وهـذا طـور ثـان للصبـي، هـو طـوره في المدرسـة. والمدرسـة عنـده، هـي الشـيخ عيـاض أسـتاذ النحـو ثـم كتـاب «المشـذب».

أمـا الشـيخ، فهـو ناهـض القامـة، جهـوري الصـوت، عصبـي المـزاج، كأنـه بجملتـه مـن رأسـه إلى أخمـص قدميـه، جهـاز للإحسـاس المرهـف الناعـم، وكان هـذا الجهـاز موصـول عـلى الـدوام بتيـار كهربـائي، فهـو يتأثـر ويهـتر حتـى مـن اللمـس الرفيـق.

وأمـا «المشـذب»، فهـو تـركي اللغـة، وإن كان في النحـو العـربي. وليـس في هـذا مـا يدعـو إلى العجـب والاسـتغراب، فهـو سـبيل الاسـتعمار يضعفـك وفي لغتـك إن اسـتطاع.

ولـو أن الأمـر وقـف عنـد لغـة الكتـاب، لهـان الخطـاب، ولكـن أسـتاذ النحـو هـذا، كان لا يفكـر في أن يـشرح الـدرس لتلاميـذه، وقصـاراه أن يسـتظهروا

متن «المشذب»، على أجزاء ينجمها ويفرضها عليهم كما يشاء وحين يشاء، فأنت تراه حين يأزف موعد الدرس، يقبل على الصف بقامته الناهضة، وفي جبته الفضفاضة، وبعمامته المكورة، فيستوي على منصته. ولا بد من أن يصعد بصره في التلاميذ، وأن يجول به في أقطارهم جميعا لحظة أو لحظات، ثم يفيء إلى نفسه، فيفتتح الدرس بدعوة تلميذ إلى تلاوة ما حفظ عن ظهر قلب، فينهض سامعا مطيعا، ولكنه لا يفتح فاه تاليا، حتى يغمض الشيخ عينيه مهموما.

ولعلك تضحك، أو لعلك تأسى، إذ يقص عليك الغلام أنه صرف عاما كاملا، وهو يعيد على شيخه موضوعا واحدا من هذا والمشذب، فلقد استظهره في بداية العام الدراسي، على ضجر وكره منه، وراح يتلوه، كل درس، هاضبا متدفقا، والشيخ لا يفطن لهذا التكرار، فما كان يكره أن يتعلم التلاميذ، وإنما كان همه أن يدلف إلى غرفة الصف في مواعيد الدرس، وأن يتناول جمله نهاية الشهر.

والى جانب هذه الخطة النابغة في التدريس، كان إذا غضب، نثر من فحش القول قذائف محرقة، هدفها الصلة الجنسية، لا تتعداها إلى أي شيء آخر، فكأن هذه الصلة مركزة في قرارة نفسه. وليس من الغريب أن يقف عندها، فقد رأى الخير على وجهها الكريم، ومن سبيلها تسرب إلى قلب حاكم المدينة. فكان يحضر مجلسه، لا يشارك في أدب رفيع، أو علم مفيد، أو سياسة صالحة نافعة. وإنما ليردد ما حفظ من تلك الأبيات ذات العلاقة القريبة أو البعيدة بالشهوات الجنسية، كالذي قال النابغة الذبياني في المتجردة زوج النعمان بن المنذر ملك الحيرة، والذي

قـال إن الرومـي في جاريتـه السـوداء، والـذي قـال بشـار الأعمـى في عبثـه ومجونـه، والـذي قـال الفضـل بـن قدامـة فيـما لا نعـرف. ونحـن نقتـصر عـلى قـول الأخـير، فتـورده، للتفكهـة، مثـالا لهـذا اللـون مـن الشـهر الماجـن:

كأن تحـت درعها المنعط

إذا بـدا منها الذي تغطى

شـطا رميت فوقه بشط

ضخم القذال حسـن المختط

كأنه قط على مقط

كهامة الشـيخ اليماني الثط

لم يعمـل في البطن ولم ينحط

هـذا هـو الشـيخ، معلـم النحـو العـربي. وليـس مـن الغريـب أن تعلـم مـن بعـد، بأنـه كان مرهـوب الجانـب في المدرسـة، يخشـاه التلاميـذ، ويصانعـه الأسـاتذة، مـن أجـل شـغبه وبـذاءة لسـانه، ثـم مـن أجـل صلتـه الوثيقـة بالحاكـم، وحظوتـه عنـده، وإيثـاره إيـاه ولكـن الحداثـة، اللاعبـة الجريئـة، لا تعـرف النـوازع الكظيمـة، فهـي تتحـدى الشـيخ حينـا، وتعابثـه أحيانـا، وتصفـر لـه في غفلتـه أو في تهويـه، وحينئـذ تسـمعه يجهـر بالسـباب الفاجـر، وتعلـو الضجـة، وتعـم الفـوضى، فيـأتي المديـر، ليعاقـب مـن يعاقـب فـإذا عـاد السـكون والهـدوء، عـاد للشـيخ سـلطانه.

كانت غرفة الصف فسيحة، وكان قسم منها للصلاة. فإذا جاء وقتها، بسطت الحصر على الأرض، فأقيمت عليها الصلاة. ثم تلم وتطوى وتوضع لفائف مسندة إلى الجدار في زاوية من الغرفة. ويقوم في خيال تلميذ، أن يلف نفسه بإحدى هذه الحصر. ثم هو يمضي إلى عبثه ذاك من فوره. ويقتدي به التلاميذ. وإذا المقاعد خالية، وحصر المسجد مشغولة، والقاعة خلاء في العين.

ويقبل الشيخ على الصف، فيدهش حين لا يرى أحدا. ويأخذ في التسبيح بصوته الخشن العريض دهشة واستغرابا، ولكنه يسمع صوت ضحك مكظوم مكبوت، فيفطن إلى عبث الحداثة، ويشرع فيما اعتاد من قبيح القول وبذي النعوت وطريفها، ونجد عصاه سبيلها إلى أجسام التلاميذ، فيقع بعضهم فوق بعض، فيما يحاولون النجاة من عصا الشيخ، والافلات من هذه الحصر اللعينة. ويأتي المدير على ما قام من الصخب والضجيج بين شيخنا وتلاميذه، فيعيد الهدوء.

وتمضي أيام فيزداد الشيخ بذاءة وفحشا، وتلاميذه تنكرا، كما يزداد هؤلاء تحرشا وتحديا وعنادا. وذات يوم يأتمرون فيها بينهم، فإذا جاء شيخهم، وقر قراره في منصته، وابتدأ الدرس وأخذ تلميذ في تلاوة ما هو مفهوم، أو غير مفهوم من هذا (المشذب) التركي؛ إذا أخذ في هذه التلاوة، وأغمض الشيخ عينيه، وراح في نومه الخفيف، عمد خبيث منهم إلى حبل متصل ببكرة في سقف الغرفة، وإذا هو يوصل الحبل بعمامة الشيخ في ريث وسكينة، ثم يجذبه في أناة، فإذا العمامة ترتفع إلى السقف. ويهب النسيم عليلا خصرا، فيداعب الصلعة الملساء،

فيشعر الشيخ بالخصر، ويحس في رأسه خفة ليس له بها عهد من قبل، فيفي إلى وعيه، وترتفع يده إلى مكان العمامة، فإذا هي على أم رأسه، لا يفصل بينهما ما كان يفصل دائما، ويفتح عينيه في شيء من المبادرة والدهشة، فيرى عمامته في الصميم من السقف، تترنح مشنوقة في الهواء، ويفيق من دهشته على أصوات التلاميذ المخنوقة، فقد كانوا في غمرة من الضحك الساخر، وشدة من الخوف البالغ من شيئين: لسان الشيخ؛ وعصاه.

وينهض الشيخ من مجلسه هادئ الركن، ظاهر الأناة، فيعمد إلى جبته الفضفاضة فيخلعها، ثم يمثل فصلا نسدل عليه الستار. وحسبك أن تعلم بأن صوته ارتفع وامتد إلى أعلى ما ارتفع ويمتد إليه الصوت الجهير، بما لا يسعك برضاك أن تصغي إليه، من فاحش القول، وشنيع الكلام. وتأخذ الصبيان حالة من حالات الاستهتار بالتبعات فينطلقون ضاحكين، مصفقين، مصفرين، ويخرج الأساتذة والتلاميذ الآخرون من صفوفهم، والمدير من حجرته على هذه القيامة القائمة، والضجة الصارخة الصاخبة، فإذا هم أمام مشهد فذ في بابه، عجيب غريب في وقوعه.

وتجري التحقيق على الفور، ويطرد التلميذ البادئ بالعبث، ويطلع الحاكم على الحادث. ولا يمر وقت طويل حتى يكون الشيخ في منصب رفيع السنام، عريض الجاه. فيزدلف إليه الناس ويطوفون ببابه لنوال بزكاته وصالح دعواته، وعزيز رضاه.

أمـا المدرسـة فقـد حرمـت مـن علمـه وفضلـه وأدبـه!!!، وإن كانـت قـد وجـدت، مـن بعـده مـا كانـت في أشـد الافتقـار إليـه مـن الهـدوء والسـكينة، ولا عليـك أن قلـت وجـدت كثـيرا مـن النجـاح.

-٨-

وللمدرسـة عنـد صاحبنـا ذكريـات أخـرى، ولكنهـا جميلـة عطـرة، يطيـب فيهـا الحديـث ولا ينـسى. وكيـف ينـسى حديـث أسـتاذه في الأدب والأخـلاق. فلقـد كان جـمال الديـن بـك مثـلا أعـلى في عفـة لسـانه، وطهـارة أخلاقـه، وحرصـه عـلى إفـادة تلاميـذه. ولا يـزال الصبـي يذكـر اقبـال هـذا الأسـتاذ عـلى الـدرس باشـا متطلقـا، يتنـاول موضوعـه مـن أهـون نواحيـه، في مسـاق هـو إلى حديـث الأصدقـاء، أقـرب منـه إلى إلقـاء الأسـاتذة، وتقريـر المعلمـين.

ويعلـم اللـه، أنـه عـلى طـول مـا مـر بمحدثنـا مـن السـنين منـذ أيـام دراسـته الأولى، وعـلى كـثرة مـا خـبر مـن النـاس، مـا انفـك يـرى في أسـتاذ الأدب والأخـلاق أرفـع النـماذج لمـن يجـب أن يقبـس منـه، كـما كان ولا يـزال يـرى في معلـم النحـو ذلـك الشـيخ العجيـب، الأنمـوذج الوضيـع لمـن يجـب أن يرغـب عنـه.

كان جـمال الديـن بـك، فيـما يعتقـد الصبـي، مثـالا للفطنـة والاعتـدال؛ بدنـو مـن المجتمـع ولكـن عـلى قـدر مـا تسـوقه إليـه مهـام عملـه، وتكاليـف عيشـه، ثـم يقـف عنـد حـده ذاك ولا يزيـد، وكان لا يـرى الطبيعـة البشريـة خـيرا كلهـا، ولا شرا كلهـا، فللخـير فيهـا نصيـب، وللـشر فيهـا نصيـب يتذبـذب بـين الطيبـة والـرداءة. ولـه بعـد هـذا الـرأي وثبـة إلى الناحيـة العمليـة فقـد

كان يقـول: لا بـد مـن قبـول النـاس عـلى هـذا الشـكل، إذا أراد الإنسـان ألا يتعاقـب أسـفه، ويعظـم أسـاه، حـين يخيـب ظنـه، ويخطـئ تقديـره، وتخـسر مودتـه.

ولفـن الحيـاة نصيـب مـن تفكـير الأسـتاذ ووثبـات ذهنـه. فأنـت تـدرك هـذا حـين تسـمعه يقـول في بعـض دروسـه: «إذا عقـك أصحابـك، أو أنكرتـك جماعتـك، أو جهـلاك مـع شرك عـلى غـير حـق. فـلا تجهـد نفسـك في التحـسر عـلى حظـك، ونشـدانه ثانيـة عنـد مـن عقـك أو أنكـرك أو جهلـك. فخـير لـك وأجمـل بـك، وأبقـى لكرامتـك، وأنـت عـلى حالـك تلـك، أن تأخـذ مكانـك مسـتقلا، ولكـن عـلى ألا تبقـى باهـلا تنظـر مـن بعيـد، بـل تعمـل لنفسـك مـا يكرمهـا ويغنيهـا مـن جديـد».

ويذكـر الصبـي لأسـتاذه تعليقـا مـن لـون آخـر عـلى الحيـاة. فقـد كان في بعـض دروسـه يقـول: «حـين يكـون نصيـب الـشر هـو الغالـب في تركيـب الطبـع البـشري، فإنـك تجـد بـين النـاس، مـن ينسـاق بطبعـه، والهـام نفسـه إلى أن يسـلك السـبيل إلى الـرزق، بالنفـاق والملـق، فيظـل ينفـق مـن ضميـره حتـى يغيـض معينـه، وتتسـاوى عنـده القيـم والأوزان. وهـو إذ يبلـغ بـه الأمـر، هـذا الحـد مـن الانفـاق والبـذل، يمـوت الرجـاء في صلاحـه، حتـى ولـو جـاز لـك فقطعـت لسـانه».

«وتقـع كذلـك بـين النـاس عـلى مـن لا يـرى بـين يديـه مـن وسـائل الحيـاة، إلا أن يخدعـك، ويغـرر بـك، فيسرقـك ويسـلبك مـا وصلـت إليـه يـده منـك، أو يؤذيـك بالتجسـس والكيـد أو النميمـة. وهـو إذ يألـف هـذا، ويـدرج

عليه. ويغرق فيه لا يكون لك ثمة مندوحة أو ذريعة إلى رده إلى الأمانة، أو إلى الشرف، حتى ولو كان لك السلطان عليه فقطعت يده».

ولن يكون الحديث الذي نحن فيه صادقا، ولا هذه الذكرى تامة، فيما يعتقد صاحبنا الصبي، إلا إذا عرض لموضوع طريف تناوله الأستاذ، ذات يوم، حين تحدث إلى تلاميذه في المرح والترح، أو البشر والوجوم. فلقد كانت الكلام يومئذ موصولا بهذه الأطوار التي تتعاقب على النفس الإنسانية ألوان مختلفة في دورات متتالية، فتنقلها من الغبطة إلى الحزن، أياما أو أسابيع أو لحظات، ثم من الحزن إلى الغبطة، أياما أو أسابيع أو لحظات، دون أن يعرف لها سببا واضحا، أو ماتي بينا.

وإليك ما قال الأستاذ في درسه ذاك: «من يرقب تقلبات الحس عنده، وعند غيره من الناس، يخرج أدنى إلى الاقتناع بأن الإنسان في حياته محكوم عليه بأن يحيا تحت سلطان ألوان من العواطف. فآنا يصحو على شعور غامض يختلج في الصدر، ولا سبيل معه إلى الراحة والرضا، فزعجه في حاله تلك أتفه الأشياء، ويقلقه أيسر الأمور، ويتأفف حتى من أعز الناس عليه، وألصقهم بقليه، ولا يرى في محيا الحياة بشرا، ولا في وجوه الأشياء صباحة، بل يقع منها على صور شاحبة درة لا تروقه ولا يرتضيها، فتسوء ظنونه في دنياه، ويثقل عليه ظلها. وآونة يجد نفسه قد أفاق على حال من الشعور، هي ضد ما كان عليه من قبل، فإذا كدره إلى صفاء، وترحه إلى مرح، ووجومه إلى إشراق وغبطة، وانقباض أساريره إلى طلاقة وسماحة، فيحس مسرات الحياة ومباهج الدنيا، وينعم بها، ويؤمن بوجودها، ويجد بين الناس خلقاء كثيرين

لمودتـه، وأهـلا لأن يأنـس بهـم، ويسـعد بقربهـم وصداقتهـم. وحـين تعـرض لـه مشـكلة مـن مشـاكل الحيـاة يعالجهـا بالحسـنى، ويبادرهـا بالحيلـة، ويتولاهـا بالرفـق، وهكـذا تمـر بـه الأيـام مرحـا طروبـا، ناعمـة بالحيـاة مغتبطـا بهـا، إلى أن يـأتي دور الـترح والوجـوم في الحـال العكسـية مـن انفعالـه الشـعوري.

«كل إنسـان تمـر بـه هـذه الأطـوار النفسـية متعاقبـة، تـتراوح جيئـة وذهوبـا في فـترات لا تـكاد تفطـن إليهـا. ويغلـب عـلى الظـن أن ليـس لهـا كبـير الأثـر في نجاحنـا، أو اخفاقنـا في الحيـاة، أو فيـما يواجهنـا مـن ظـروف مواتيـة أو غـير مواتيـة، وأنهـا تبـدأ بخاطـر عابـر يـرد عـلى البـال، أو بالهـام يهتـف بـه القلـب، أو ذكـرى تعـود إلى الذاكـرة، ولكـن مـا هـي فائـدة مـا نحـن فيـه مـن الحديـث؟، ثـم مـا هـو مأتـى هـذا الشـعور الثنـائي؟. ويجيبنـا الأسـتاذ في درسـه ذاك فيقـول:

«وأنـت إذا علمـت بكنـه مـا يتداولـك مـن الشـعور بالمـرح والفـرح تـارة، وبالحـزن والوجـوم أخـرى، أمكنـك أن تسـوس نفسـك وتراقبهـا. وأمكنـك كذلـك أن تعلـل مـا تجـد مـن انقبـاض الآخريـن، عـلى ضـوء علمـك هـذا، فتقـضي بذلـك عـلى كثـير مـن أسـباب الجفـاء، وبواعـث القطيعـة بينـك وبـين النـاس، وتنقشـع عـن سـماء دنيـاك تلـك. السـحب التـي طالمـا قضـت عـلى الصفـاء بـين ذوي القـربي، وعـلى المـودة بـين الأصدقـاء».

ويأتي الأستاذ إلى السؤال الثاني فيقول:

«لم يصل العلم بعد إلى سر هذه المشاعر، والخوالج النفسية، فهي في غيب عنه لا يعرف على التحقيق، كيف تتأتي وتنشأ وتتفاعل. ولكن العقل يتلمس طريقه في المجاهل أحيانا، على نور الفروض كما افترض الأثير، لتعليل بعض الظواهر الطبيعية. وأنت إذا تنظرت ما تلمس، وتدبرت ما تحس وتعقل، وجدت دنيا الكون هذه، قائمة على التضاد الثنائي، ففي بناء الذرة نجد الشحنة الكهربائية السالبة تقف في وجه الشحنة الموجبة، وفي مظاهر السكون الأخرى، نجد السكون يقف في وجه الحركة، والموت في وجه الحياة. وتجد الحرارة والبرودة، والبحر والبر، والمد والجزر، والربيع والخريف، والحرية والعبودية، والوحدة والتنوع، والغني والفقر والشقاء والسعادة، إلى ما لا يحصى من ثنائيات الحياة، أو على الأصح، ثنائيات الوجود».

«والانسان في تركيب طبائعه، لا يخرج عن ناموس هذه الثنائيات المتعاكسة، فهو يحب ويبغض، ويرضى ويغضب، ويفرح وحزن، ويسعد ويشقى، متأثرا حينا بعوامل خارجية، وحينا بما في باطنه من تفاعل كيميائي تنهض به بعض الغدد بما تفرز من هذه السوائل (الأنوار) التي يظن بعض العلماء، أنها تؤثر على سلوكنا وتصرفاتنا، وتتحكم في شخصياتنا، وتحدث ما يتداولنا من ألوان المواطن، وضروب الحس».

«فإذا انتهيت من هذا الشوط النظري، أمكنك أن تفسر شعورك بالفرح، ثم ارتدادك إلى الترح، من فعل جزء من جهاز العصبي، أو أن

تفرض هذين الشعورين من عمل غدتين، تنشط أحدهما فتكون لها الغلبة، فيظل أثرها سائدا غالبا إلى أن تهن طاقها ويفتر جهدها، فتكل وتعجز عن النشاط؛ وحينذاك يبدأ عمل الثانية المستجمة، فيغدو لها السلطان على النفس؛ تتأثر بها، وتتجه بتوجيهها، وتشعر بما تفيض عليها. وهكذا دواليك على دورات متعاقبة، ربما صح لك أن تسميها «نوبات المرح والترح».

ويفيض الأستاذ في الحديث فيقول: «فطن أبو محمد علي بن أحمد ابن سعيد بن حزم الفيلسوف العربي الاندلسي، إلى شيء قريب من هذا الذي نخوض فيه من بحث الانفعال النفسي، فأورد في رسالته المسماة (في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق):

«واعلم بأنك إن تعلمت كيفية تركيب الطبائع، وتوليد الأخلاق، من امتزاج عناصرها المحمولة في النفس، فستقف من ذلك وقوف اليقين على أن فضائلك لا خصلة لك فيها، وإنها منح من الله تعالى، أو منحها غيرك لسكان مثلك، وأنك لو وكلت إلى نفسك، لعجزت وهلكت فاجعل بدل عجبك بها شكرا لواهبك إياها، واشفاقا من زوالها. فقد تتغير الأخلاق الحميدة بالمرض وبالفقر وبالغضب وبالهرم.

«ولقد أصابتني علة شديدة، ولدت عليّ ربوا في الطحال شديدا فولد ذلك عليّ من الضجر وضيق الخلق، وقلة الصبر والنزق، أمرا جاشت نفسي فيه، إذ أنكرت تبدل خلقي، واشتد عجبي من مفارقتي لطبعي، وصح عندي أن الطحال موضع الفرح إذا فسد تولد ضده».

وعلق الأستاذ على هذا الذي نقل إلى تلاميذه من كلام ابن حزم فقال:

«ولا يخرج هذا الرأي عن الحدس والافتراض. ولكنه مقبول من وجهة التفسير، وإن كان العلم لا يقبل اليوم: إلا ما صح بالتجربة والفحص والمشاهدة».

انتهى الدرس وخرج الأستاذ من غرفة الصف، كما خرج التلاميذ إلى حديقة المدرسة، ولكن أفكارهم كانت لا تزال تعمل، فقد حركها الأستاذ ونقلها بحديثه ذاك إلى أفق جديد. وجدير بكل جهد محرك أفكارك، وينقلك إلى أفق جديد، أن يظل له الأثر الدائم المستقر في حياتك.

-٩-

وينتقل الأستاذ في درس آخر، إلى الكلام على المعارك النفسية، فيفتتح الحديث فيقول:

تتفاوت المواطن في أشواقها وجهادها، وفي قوة شكيمتها ودرجة صلابتها وإلحاحها. وحين تتعارك وتلاحم، فإن الغلب إنما يكون للعاطفة الراسخة ذات الغور البعيد، وقد يتدخل العقل، ولكنه قلما رجح بالميزان، بل أنت تراه، ولعلك تعجب حين تراه، وهو مغلوب على أمره، يتحرى المبررات والمعاذير للعاطفة الغالبة.

ويثب الأستاذ، من بعد إلى التاريخ، ليقع على العظة، ويجد المثال للتطبيق في هذه القصة:

«لما قدم مصعب بن الزبير، بوجوه أهل العراق على أخيه عبد الله

بـن الزبـير، فلـم يعطهـم شـيئا، ابغضـوه، وكاتبـوا عبـد الملـك بـن مـروان، فخـرج يريـد مصعبـا، فلـما أخـذ في جهـازه، أقبلـت. زوجـه عاتكـة بنـت يزيـد بـن معاويـة في جوارهـا، وقـد تزينـت فقالـت لـه: «لـو قعـدت في ظـلال ملـكك، ووجهـت إليـه كلبـا مـن كلابـك، لكفـاك أمـره، فقـال: هيهـات! أمـا سـمعت قـول الأول:

قوم إذا ما غزوا شـدوا مآزره

دون النسـاء ولو بانت بأطهار

فلـما أبى عليهـا، بكـت وبـكى معهـا جواريهـا، فقـال عبـد الملـك: قاتـل اللـه كثـيرا! واللـه لكأنـه يـراني ويـراك يـا عاتكـة حيـث يقـول:

إذا مـا أراد الغزو لم تثن همه

حصـان عليها عقد در يزنها

نهتـه، فلما لم ير النهى عاقه

بكت، فبكى، مما شـجاها، قطينها

ثـم خـرج يريـد مصعبـا، فلـما كان مـن دمشـق عـلى ثـلاث مراحـل، قـام عمـرو بـن سـعيد الاشـدق وخالـف عليـه، فقيـل لـه مـا تصنـع، أتريـد العـراق وتـدع دمشـق؛ إن أهـل الشـام أشـد عليـك مـن أهـل العـراق. فرجـع مكانـه فحـاصر أهـل دمشـق حتـى صالـح عمـر بـن سـعيد عـلى أنـه الخليفـة مـن بعـده، وأن لـه مـع كل عامـل عاملا، ففتـح لـه دمشـق.

وذات يـوم أرسـل عبـد الملـك إلى عمـرو بـن سـعيد أن ائتنـي أبـا أميـة حتـى أدبـر معـك أمـورا، فقالـت لـه امرأتـه: يـا أبـا أميـة لا تذهـب إليـه فـإني اتخـوف عليـك منـه، فقـال عمـرو واللـه لـو كنـت نائمـا مـا أيقظنـي. قالـت: واللـه مـا آمنـه عليـك، وإني لأجـد ريـح دم مسـفوح، فـما زالـت بـه حتـى ضربهـا بقائـم سـيفه، فشـجها، فخـرج وخـرج معـه أربعـة آلاف مـن أبطـال أهـل الشـام، فاحدقـوا بخـضراء دمشـق، وفيهـا عبـد الملـك، فقالـوا: يـا أبـا أميـة إن رابـك ريـب فاسـمعنا صوتـك، فدخـل فجعلـوا يصيحـون: أبـا أميـة أسـمعنا صوتـك، وكان معـه غـلام شـجاع فقـال لـه: اذهـب إلى النـاس فقـل لهـم: لا بـأس عليـه، فقـال لـه عبـد الملـك: أمكـر عنـد الموت؟! خـذوه فأخـذوه، ثـم قـال لـه: إني أقسـمت إن مكنتنـي منـك يـد، أن اجعـل في عنقـك جامعـة، وهـذه جامعـة مـن فضـة أريـد أن أبـر بهـا قسـمي. فطـرح في رقبتـه الجامعـة ثـم نـثره إلى الأرض فانكـسرت أسـنانه، فجعـل عبـد الملـك ينظـر إليـه، فقـال عمـرو: لا عليـك يـا أمـير المؤمنـين عظـم انكـسر، وسـمع الأذان إلى الصـلاة. فقـال عبـد الملـك عبـد العزيـز ابـن مـروان: اقتلـه حتـى أرجـع إليـك، فلـما أراد عبـد العزيـز أن يـضرب عنقـه، قـال لـه عمـرو: نشـدتك بالرحـم أن لا تقتلنـي مـن بينهـم! فجـاء عبـد الملـك فـرآه جالسـا، فقـال: مالـك لم تقتلـه لعنـك اللـه، ثـم قـال: قدمـوه إلي، فأخـذ الحربـة بيـده، فقـال لـه عمـرو: فعلتهـا يـا ابـن الزرقـاء، فقـال لـه عبـد الملـك: إني لـو علمـت أنـك تبقـى ويصلـح لي ملـكي لفديتـك بـدم الناظـر، ولكـن قلـما اجتمـع فحـلان في اجمـة، إلا عـدا أحدهـما عـلى الآخـر، ثـم رفـع إليـه الحريـة فقتلـه وقعـد».

وتساءل الأستاذ هنا فقال:

أين مواطن العراء النفسي في هذه القصة؟، وأين أثر العقل؟ وأجاب فقال: ذلك ما نحاول أن ندل عليه، ونبدأ بعبد الملك. فإنك لتلامس ما في نفسه من عراك عاطفي قوي، في قوله: «لو علمت أنك تبقى، ويصلح لي ملكي، لفديتك بدم الناظر، ولكن قلا اجتمع فحلان في اجمة، إلا عدا أحدهما على الآخر».

ففي الشق الأول من كلامه يفجأك شعور الاشفاق قوية في قوله: «لفديتك بدم الناظر». وفي الشق الثاني تحس جانب الشر قوية عارمة عنيفة، تسنده عاطفة حب الذات الجبارة، وتجد سلطان هذه العاطفة غائبا، حتى على العقل في قوله: «قلما اجتمع فحلان في اجمة إلا عدا أحدهما على الآخر». وهكذا لم تقو عاطفة الاشفاق الضعيفة على الصمود في وجه عاطفة حب الذات الجامحة. فلما انهزمت الأولى قتل عمرو بن سعيد.

ولكن ألم يكن عمرو بن سعيد هذا، عدلا في العاطفة لعبد الملك بن مروان؟، فلقد كان المطمح واحدة، والهدف واحد، ثم إن عمر بن سعيد كان قرنا لعبد الملاك، حتى لقد أرغمه، كما رأيت، على التسليم والرضا بأن يتولى الخلافة من بعده، وبأن يكون له عامل، مع كل عامل، وحتى أنه استولى بالفعل على بيت المال. فكيف تمت الندية لعبد الملك عليه؟

مـن صفـات العواطـف أنهـا تغفـو بعـد الظفـر في المعركـة، كالعضـلات الجسـمية إذ تطلـب الراحـة بعـد التعـب. فلـما أرغـم عمـرو بـن سـعيد عبـد الملـك عـلى مصالحتـه، غفـت عاطفتـه ونامـت، بينـما كانـت عاطفـة عبـد المالـك يقظـة سـاهرة، موتـورة، فهـي قـد غلبـت عـلى أمرهـا. وكيـف تنـام عـلى الضيـم؟! وترضـخ للعـدو، وهـي تحـس ذل الرضـوخ ولما تبلـغ مناهـا؛ وهكـذا ظلـت ثائـرة، سـاهرة، جـادة حتـى تمـت لهـا الغلبـة، بالغـدر والحيلـة، فقضـت عـلى عدوهـا.

وأنـت إن تدبـرت في هـذا الـذي قصصنـا عليـك، لا تبعـد عـن الصـواب إن ذهبـت إلى أن ظفـر عمـرو بـن سـعيد، هـو الـذي قتـل عمـرا بـن سـعيد.

وتجـد في هـذه القصـة لونـا آخـر مـن العـراك النفـسي، إن فطنـت لمـا كان بـين عبـد اللـه بـن الزبـير ووجـوه أهـل العـراق، حـين وفـدوا عليـه مـع أخيـه مصعـب، فخـاب رجاؤهـم في عطائـه، فولـوا وجوههـم شـطر عـدوه عبـد الملـك، فكاتبـوه عـلى أن يكونـوا لـه ظهـراء.

ففـي وسـعك أن تفـسر انقلابهـم هـذا، بأنهـم لم يكونـوا مدفوعـين إلى نـصرة ابـن الزبـير، بعقيـدة دينيـة راسـخة، بـل كانـوا مسـوقين، بالطمـع في رفـده، فلـما خـاب رجاؤهـم فيـه، تركـوه إلى عـدوه فصـاروا عونـا لـه عليـه، وهكـذا تغلـب الطمـع القـوي عـلى الشـعور الدينـي الضعيـف.

وهـذا مفتـاح النجـاح، لـن يتغلغـل في أعـماق النفـوس، فيقـف عـلى مـا فيهـا مـن أشـواق وأهـواء، ويعـرف كيـف يسـتخدم معرفتـه هـذه.

وتخلص من هذا التحليل إلى أن المنطق الديني لا يصلح وحده للقيادة في المجتمعات ذات الايمان الضعيف.

وإذا انتقلنا إلى موقف امرأة سعيد بن الأشدق، وعاتكة بنت يزيد بن معاوية زوج عبد الملك، نجد ضربا آخر من ضروب العراك النفسي، فلقد كانت عاطفة الحب عندهما هي الدافع على ما حاولتا، حين وقفت الأولى في وجه زوجها تحذره من الاستجابة إلى عبد الملك، وحين نهضت الثانية تريد اقناع زوجها بأن يكل أمر مصعب إلى أحد أعوانه. ولكن شعور الحفاظ والنخوة عند الزوجين كان أشد وأقوى من عاطفة الحب، فلم تصنع العقيلتان شيئا.

ولعلنا بعد هذه الجولة لا نكون قد جرنا على الحقيقة إذا نحن ذهبنا إلى أن دنيا الناس انما تقوم في الغالب على العواطف والمنافع والشهوات، وليس على العقل أو المنطق الديني أو الاخلاق الفاضلة. وأن من اراد لنفسه السلامة، عليه أن يرقب الجانب النفسي في صلاته الاجتماعية، وحين يتحرى الحقائق، ويحاول حل المعضلات.

وهنا انتهى الأستاذ من حديثه، وخرج من قاعة الصف مشكور الصنيع، محمود النقيبة.

نحـن الآن أمـام شـخصية أخـرى، تتصـل بالمدرسـة، ولكـن هـذا الاتصـال، ليـس مـن ناحيـة التربيـة والتعليـم، ولا مـن ناحيـة الادارة، بـل مـن الناحيـة الصحيـة، وتلـك هـي شـخصية الطبيـب.

يقبـل عليـك بحقيبتـه، فـإذا أنـت أمـام رجـل ربعـة، ممتلـئ الجسـم، مقبـول السـمت، أنيـق الهنـدام، ظاهـر النشـاط عـلى رغـم خمسـين عامـا شـهدها، وإن كانـت قـد خلفـت في وجهـه بعـض الأثـر مـن مسـاحب أذيالهـا، وتجالسـه فتجـده مزهـوا، وتقـع منـه عـلى إنسـان يطيـب لـه أن يسـمعك تـزف إليـه آيـات الاعجـاب بفنـه وطيـه.

لم يكـن عملـه في المدرسـة أصيـلا. وإنمـا هـو رديـف لعمـل لـه أصيـل في الحكومـة، فـكان يتعهـد التلاميـذ في المدرسـة حينـا بعـد حـين. ولكـن الأشـخاص الذيـن تنـد أخلاقهـم، أو تشـذ عقولهـم فيصطنعـون الحيـاة عـلى غـير مـا توجـب الأخـلاق النبيلـة، أو تطلـب الانسـانية المترفعـة، لا يمضـون عنـك إلا وأنـت تنعـى الحيـاة، وتسـتثقل مـن أجلهـم ظلهـا وتبقـى ذكراهـم ناشـبة في نفسـك تفعـل فيهـا للعلـة، فتعيـش معـك عـلى طـول مـا تحيـا.

ومـن هـذا الـضرب مـن المخلوقـات طبيـب المدرسـة، هـذا الـذي نحـن في حديثـه، فهـو كان فيـما عـرف النـاس عنـه وفيـما عـرف محدثنـا الصبـي معهـم، لا يطيـق ذكـر أي مـن أطبـاء المدينـة، فهـم فيـما يعتقدونـه قـدرة وخـبرة، وتتبعـا للاكتشـافات الطبيـة، ودونـه فطنـة لمـا اسـتسر مـن الأمـراض، واسـتعصى مـن الملـل. وأنـت تـراه يعيـش دائمـا في جـو مشـبع بتزكيـة

النفس، كما هو مشبع باستصغار شأن الزملاء، ولن تستغرب، وأنت تعلم بعقله هذا، أو بحياته هذه، أن ألفيته يزن طبه بالدينار، وألفيت من غرهم الصوت الفارغ من أولئك الفقراء ذوي العاهات والأسقام، يقفون على بابه حيارى إزاء هذه الأرقام المرتفعة لما يتقاضى على طبه من الأجور، فلا أوجاعهم تهادنهم، ولا هو يحسها، وكيف يفعل وبينه وبين الشعور الإنساني حجاب صفيق.

وتراه كذلك في جو ثنائي آخر. فهو يعيش على المصانعة والمداراة لمن فوقه، وعلى كثير من البذل للدعارة لنفسه، فلقد اصطنع زيدا من الناس، فيما قالوا، على أجر شهري معلوم، فكان هذا الزيد يطوف بالمجالس مكبرا فن صاحبه، مشيدا بحذقه مقرظا طبه، إلى أن عثر الداعية المسكين عثرة، فارق معها الحياة في سبيل الدجل.

وليس هذا كل ما يريد الصبي أن يستعرض في حديثه من ذكرياته المتصلة بالطبيب؛ وإنما يقصد إلى شيء آخر ربما ساق إليك العبرة، وربما ساق الأسى؛ فلقد كان هذا الطبيب ذات يوم في المدرسة، فتقدم إلى المعاينة الطبية تلميذ أحس اعباء مشى إليه من أنحاء جسمه جميعا، وأحس إلى جانب هذا الاعياء مسة خفيفة من رسيس الحمى، وكان في الواقع مصابا بالقلاب كما علم فيما بعد.

ويقول الطب في هذا المرض؛ إنه التهاب جرثومي يصيب صمامات القلب، من فعل المكروب السبحي الأخضر، فيتسرب إليه من الأفواه -حيث يعيش في الغالب-، حين يجد منفذا. وأن أمره يختلط أحيانا

على غير الحذاق من الأطباء فيحسبون أعراضه طلائع أمراض أخرى تخشاها الناس.

وحدث أن أغلق الله باب الفطنة على صاحبنا الدكتور فشخص المرض على غير حقيقته. وحسب أنه اكتشف ناحية بكرا من الطب، أو شيئا خطيرا يصلح للنشر والدعوة، فراح يجهر بما شخص من مرض التلاميذ المسكين، واتخذ منه وسيلة لرفع الصوت، شأن الانتهازيين، حين يهتبلون الفرص.

وتنتقل إلى العلاج، فلقد شرع هذا الطبيب يحقن التلميذ بنوع من هذه الأمصال المستحضرة، ولكن طبه هذا مضى على غير طائل. ولو أنه داوم على هذه المعالجة، لسبب للمريض، على رأي أحد الأطباء، نزيفا كان من المحتمل أن يذهب بحياته. ولكن القدر شاء السلامة، فعالجه طبيب آخر، عرف المرض فكان الشفاء ولو أنه لم يكن على يد الدكتور فتوح...

ويذكر الصبي أن مدير المدرسة أصيب يوما بالبرداء، فقام صاحبنا الطبيب على مداواته. ومضت أيام وهو يجهل حقيقة المرض، فكان ينقض اليوم رأيه بالأمس. ولا يسك إلا أن تدهش وتحار، حين تسمعه يقول لأهل الرجل: «لو أن مريضنا شخص آخر، ألحقناه بأنواع مختلفة من الأمصال، فيفعل فيه ما يوافق مرضه، ولكنا لا تجرأ على هذه التجربة في مدير المدرسة».

وذات يـوم، جـاءه جميـل المسـكين ليعالـج ابنـه، مـن مـرض جلـدي في رأسـه، ويكتفـي الدكتـور بنظـرة خاطفـة، ويصـف العـلاج مرهـما، ويسـتعمل للطفـل، ثـم لا يكفـي مـن الوقـت إلا قليـلا، حتـى ينتفـخ وجهـه، فتـكاد تغيـب معالمـه، فيهـرع الوالـد بابنـه إلى الدكتـور، فيـدور هـذا الحـوار،

- دكتـور! انظـر، ما حل بالطفل بعد العلاج.

- ومـاذا تريد أن أصنع له؟

- دخيلـك ابني راح يموت!

- أنـا غير متخصص في الأمراض الجلدية!

- دخيلـك ابني راح يموت يا دكتور!

- قلـت لك أنـا غير متخصص في الأمراض الجلدية.

- لكـن يـا دكتـور، أنـت شـفت الصبـي وأعطيـت العـلاج، ومـا قلتـش إنـك مـش متخصـص؟

- خذ ابنك وانصرف.

- دخيلك يا دكتور!

- أخـرج، أخرج من هنا!

- دخيلـك، اعمل معروف، ابني راح يموت!

- اخـرج. اخـرج يـا كلـب! ودفعـه إلى الخـارج، ثـم أغلـق بـاب العيـادة، كأنـه لم يصنـع شـيئا.

فهـل هذا الدكتور يعيش بلا ضمير؟

-١١-

وبعـد فـلا يـزال في نفـس محدثنـا مـن ذكرياتـه شيء أو أشـياء تمـت إلى المدرسـة، وتعيـش معـه منـذ أيامـه تلـك. فلقـد شـهد تحكـم الأتـراك في حريـة الـدرس والتدريـس، بمـا حرمـوا مـن الخـوض في النواحـي التاريخيـة المهمـة أو ذات المغـزى البعيـد، وبمـا شـوهوا بـه الخرائـط حـذف وتبديـلا في أسـماء بعـض البلـدان، وبمـا حظـروا مـن قـراءة العلـوم الفلسـفية والاجتماعيـة، ومنعـوا الأسـاتذة مـن التبسـط فيـما يلقـون عـلى التلاميـذ مـن الـدروس، فـكان بعـض هـؤلاء يحـارون، حتـى حـين يعالجـون المسـائل الحسـابية، أو النحويـة، إذ يخشـون أن توافـق الإشـارة إلى عـدد مـن الاعـداد، سـني الظلـم، أو أن تشـير الفتحـة أو الكسرة، إلى فتـح العـين وكسـر القيـود، ومـا كان هـذا الضغـط عـلى حريـة التعليـم إلا خشـية أن ينبثـق نـور العلـم، فيفيـق النـاس عـلى وعـي أنهـم مـن بنـي البـشر، وأن لقومهـم حقوقـا مهضومـة.

شـهد هـذا مـن الأتـراك، ولم يشـهد مـن النـاس أيامئـذ، وهـو لا يـزال حتـى أيامنـا هـذه.. لا يـرى أي اهتـمام بمـا يقـدم للأبنـاء في المـدارس مـن غـذاء للنفـس، وزاه للعقـل، وتقويـم للخلـق، وبنـاء الجسـم؛ فـكان لا حـق عليهـم لأفـلاذ أكبادهـم، رجـال اليـوم المقبـل، أو كان نفـوس الآبـاء قـد طـاف بهـا

الجبن فقتلها، أو الغفلة فأعمتها، فباتت لا تذكر لتعتبر، ولا تفكر في المستقبل لتعد العدة، وتدخر العتاد.

ولا عجب إذن، إن لم يكن في مناهج التعليم يومذاك، ومحدثنا يعلم أن ليس فيها حتى اليوم، ما يلقن الأحداث شيئا ذا بال من فن الحياة؛ فهي لا تنبه العقل ولا تزوده بالقدرة على التفكير، ولا تعد التلميذ للعيش المكافح، ولا تعلمه كيف يقتصد ويتأثل، أو كيف يسهر على بدنه، ويسوس مشاعره، ولا سيما في دور المراهقة: أخطر أدوار الحياة، من حيث أجابها على المراهق أن يرقب ويداري أعصابه وأحاسيسه، أكثر مما عليه أن يرقبها ويداريها في أي دور آخر من عمره.

هذه أمور يجب أن يهتم بها الناس والحكومة الساهرة المخلصة معا، منذ البداية، كالاهتمام بتلقين الأطفال حروف الهجاء منذ البداية. ونحن خلقاء بأن نفهم اليوم ونقتنع بأنه ليس لمظهر من مظاهر النشاط في مناحي الحياة -عند أي شعب من الشعوب- وزن أو كبير قيمة، حين لا تكون المدارس في طليعة ما يهتم به من الوسائل لضمان الحياة الكريمة الناشطة في البلد.

فعلينا أن نفكر في المدارس آباء وأحزابا وجماعات. وأن نثور على الدنيا إن أسيء التوجيه فيها، أو ضن بالبذل عليها، أو حصل تقصير في اصطفاء خير الأساتذة وأفضلهم لها أو انتقص جق من حقوقها، فهي روح الشعب، ومن عبث الأيام أن تسند ولايتها إلى من لا يعقل هذه الولاية، حين يرغب الراغبون في مصانعة هذا الذي لا يعقل، أو يبتغون

لـه مـورد رزق يعيـش عليـه. فأنـت مـن مصانـع النـشء هـذه التـي نسـميها المـدارس، أمـام أداة قدسـية تتمـرد عـلى الزمـان بمـا لهـا مـن فعـل جبـار، وبمـا لهـذا الفعـل الجبـار مـن تأثـير بالـغ يمتـد ويطـول إلى أكـثر مـن حيـاة التلاميـذ، فهـو يبلـغ روح الأجيـال القادمـة. وأي شـعب لا يعـرف للمـدارس هـذه القيمـة التـي لهـا يصبـح فـإذا حياتـه واهيـة الأسـباب، واهنـة الحيـل، ثـم لا يلبـث أن ينقطـع في الطريـق. وأنـت لا تجـد اليـوم مـن يلتفـت إلى الـوراء ويتريـث ليأخـذ بيـدك.

-١٢-

هـل اتفـق لـك أن نهضـت في أعقـاب الليـل؟، وهـو يتراجـع متثاقـلا يسـحب أردانـه ويحـرر أذيالـه، فيصحـو عـلى حفيفهـا الكـون وأنامـل الفجـر تمسـح عـلى وجهـه، وأنفـاس الصبـاح تغشـاه. حينـذاك أنـت في السـحر حيـث تحلـم الدنيـا، وتنعـدم المسـافات ويرتفـع الحجـاب بينـك وبـين إلهـك فتتصـل بـه روحـك بالنجـوى، وقلبـك بالخشـوع.

مـا أحـلى أن تجـد نفسـك عنـد مطلـع الفجـر بـين يـدي ربـك تصـلي وتسـتغفر، ثـم تدعـوه وتـضرع إليـه وتلـح في التـماس العـون والرضـا والغفـران والعافيـة في الدنيـا والآخـرة وذلـك مـا نشـأ عليـه صاحبنـا الصبـي وهـو عـلى طـول مـا مـر بـه إلى اليـوم مـن السـنين، لا يـزال يتـذوق في قـرارة نفسـه حـلاوة أيامـه تلـك، حـين كان لا يشـغله شـاغل، غـير الـدرس وغـير الطاعـة والعبـادة.

هـذه طبيعـة الحداثـة، وخاصـة في البيئـة الصالحـة، فهـي أقـرب إلى اللـه

دائما، بقلبها الطاهر الخائف الراجي، وبنفسها الساذجة الراضية. وأنت لو أصغيت إلى ما يجول في خواطر الأحداث، إذن لوجدت الكثير منه، أحلاما تدور حول تصور الخالق في عظمته وجلاله، وابتهالا يطلب الجنة والرضوان، وتوسلا يلتمس سعادة الدارين. وكم في دنيا الخلق من غبطة يعاش فيها على الاحلام!

ليت الذين عرفوا ملذات المعاصي، يتذوقون ملذات الطاعات! إذن لعلموا بأن للروح في صفائها وقربها، لذات تفوق ما ذاقوا من شهوات هذا الجسم الفاني.

تتكلم العواطف، ويصمت العقل، وتقضى الأوطار الفاجرة؛ ولكنها تنتهي على الدوام بالأسف والخيبة. أما لذة الروح وسعادتها فهي حية تعيش معك دائما، لتعينك على احتمال الشدائد.

كان الصبي في صلاة الصبح، ذات يوم، مؤتما بشيخ من العلماء أثقلته أعوامه الكثيرة، فصار يحمل نفسه على جهد ومشقة، وإذا وقف إلى الصلاة، لا يتماسك إلا رعيش الجسم، خافق العود؛ فإذا هو في صوته الخاشع الضعيف المتهدج يتلو:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}.

الـكلام تنزيـل مـن حكيـم عليـم، قـرع الأذن، وينفـذ إلى القلـب. والصـوت يحمـل مـن الشـيخ الإمـام رجفـة الفنـاء الموشـك. والمعنـى يهتـف بالـروح، يلهمهـا الخـوف والرجـاء، فهـرع إلى اللـه في طلـب الزلفـي.

ويفكـر الصبـي في هـذه الآيـات الكريمـة، فتشـغله عـن نفسـه وعـن دروسـه. هـو يؤمـن باللـه ورسـوله. مـا في ذلـك مـن شـك، ولكـن كيـف يجاهـد في سـبيل اللـه بمالـه؟، وأيـن هـذا المـال؟، وبنفسـه، وهـو طـري العـود، رقيـق البنيـة؛ ثـم أيـن يجاهـد؟

ويظـل في تفكيره هـذا، حتـى يعلـم بـأن ردع النفـس عـن شـهواتها الآثمـة، وإيقافهـا عنـد حـدود الطاعـة، جهـاد في سـبيل اللـه. ومنـذ يومـه ذاك، صـار يحلـو لـه أن يتلـو تلـك الآيـات الكريمـة، حـين يقـف بـين يـدي اللـه. ولا يقـرأ في كتـاب الكامـل قصـة الفقيـه الفنـدلاوي شـيخ المالكيـة في دمشـق؛ ذلـك العجـوز الزاهـد الـذي ذكـر التاريـخ أنـه خـرج راجـلا مـع مـن خـرج مـن السـكان والجنـد إلى قتـال أحـد ملـوك الفرنجـة مـن الصليبيـين حـين قصـد غـزو الشـام. فقيـل لـه: أنـت يـا شـيخ معـذور، ونحـن نكفيـك، فليـس بـك قـوة عـلى القتـال. فأجـاب قـد بعـت واشـترى، فـلا نقيلـه، ولا نسـتقيله. يعنـي قولـه تعـالى: {إِنَّ اللَّـهَ اشْـتَرَى مِـنَ الْمُؤْمِنِـينَ أَنْفُسَـهُمْ وَأَمْوَالَهُـمْ بِـأَنَّ لَهُـمُ الْجَنَّـةَ}.

هـو لا يقـرأ في هـذه القصـة الزاهـدة، إقـدام الشـيخ الفنـدلاوي عـلى الجهاد، وليـس بـه قـوة عاليـة، إلا ذكـر ذلـك الإمـام الشـيخ الراجـف المتحامـل عـلى نفسـه، وهـو يـؤدي الصـلاة قائمـا، عـلى مـا بـه مـن تهافـت وعجـز.

وكان الصبي يرغب عن اللهو والحديث مع أترابه، ويميل بطبعه إلى مجالسة الشيوخ العلماء يصغي إلى ما يحظون به العامة، وأحيانا إلى ما يلقون من الدروس على تلاميذهم. وكان يحاول أن يلم بشي مما يقولون في دروسهم الماء، ووعظهم ذاك وفي أحاديثهم حين يفرغون من الدرس. ويجد في بعض ما يفهم لذة ومتعة وحلاوة، كان يؤثرها فيما بينه وبين نفسه على اللهو مع لداته، وهو منذ أيام حداثته تلك، أقرب إلى الحد منه إلى الهزل، بل هو أدنى إلى الوجوم منه إلى المرح والانطلاق الدنيا.

وجرته مجالسته العلماء، ومواظبته على الصلاة في الجامع إلى أن تقبل الطريقة الصوفية النقشبندية، فهو يذكر شيخا صوفيا تركيا هبط المدينة ذات يوم. فأقبل عليه الناس يلتمسون البركة ويتلقون منه الطريقة، فحذا حذو الناس ولم يلبث أن صار صوفيا نقشبنديا يذكر الله تعالى، ولكن ليس بلسانه بل بقلبه، ولا يذكره مرة أو مرتين أو ثلاثا، بل آلافا خمسة أو أكثر في اليوم الواحد. واليوم وهو يستعرض ذكرياته هذه يجب كيف كان وقته آنذاك يتسع لهذه «لدروشة»، وكيف كان يؤمن بأن الطريقة النقشبندية سرا يتصل بالقلب فيجعله ينطق باسم الجلالة. فأنت إذا ما أصغيت إلى وجيب قلبك في اطراقك في خلوتك، وجدت له ركزا، فيخيل إليك، وأنت تحس هذا الركز، أن القلب يذكر الله سبحانه وتعالى.

-١٣-

عـرف الصبـي في مجالـس العلـماء شـخصا لا يمـت في الواقـع إلى العلـم، ولا إلى الديـن بـشيء حـق. وإن كان يكـثر مـن الصـلاة والتسـبيح، ويرتـدي ثـوب التقـى والـورع.

يغـرك منـه ظاهـر بيديـه، ويؤذيـك باطـن خفيـه، فأنـت إن شـهدته، رابـك الخبـث يومـض في عينيـه، ولاح لـك النفـاق في هـزة رأسـه الأصلـع، ورأيـت القـدرة عـلى الخطـف في حركـة يـد، مـا سـقطت عـلى شيء، واسـتطاعت سـلبك إيـاه، إلا فعلـت.

أرأيـت معجـزة النفـاق يغـزوك، وبالدمـوع أحيانـا، لينفـي عنـه شـبهة، أو يثـب إلى قـربى؟، ذاك هـو صاحـب الصبـي. وكان قاضيـا، فأسـاء إلى القضـاء، بـشرة لا تعـرف غـير الدبيـب في طلـب الرشـوة، وقضـاء الشـهوة. فأنكـره النـاس، وأنكـره أولـو الأمـر. وكان أخلـق بـه أن ينكـر نفسـه. فأقيـل شر اقالـة، وطـرد شر طـرد، واسـتراح القضـاء منـه كـما اسـتراح النـاس.

وينقـضي ردح مـن الزمـان. فـإذا اليـد الناعمـة، تعيـد أبـا الدمـوع إلى حيـث كان، أو إلى حيـث أرادت أن يكـون، ويعـود النـاس منـه إلى مـا كانـوا بالأمس.

شرعـت مصلحـة البلديـة تعبـد الطريـق، عـلى مقربـة مـن بيتـه العامـر! فـرأى أكيـاس «الاسـمنت». وأصبـح النـاس، فـإذا صاحبنـا أبـو الدمـوع قـد سـطا عـلى مـال البلديـة. وهـل مـن سـبيل إلى التعفـف والأكيـاس تلـك في متنـاول يـده؟!

ويـزور بعـض المـدن، متفقـد مجـرى العـدل، فهـو كبـير في القضـاة. ويهبـط عليـك ضيفـا، فـإذا هـو قـد نـسي، بعـض مـا يحتـاج إليـه مـن قميـص أو منامـة، أو رداء أو شيء غـير هـذا وذاك، مـما لا بـد لـه منـه. فـلا يسـعك إلا أن تسـد حاجتـه تلـك. فهـو ضيفـك، وأنـت برضائـه ضنـين، ولا سـيما إن كنـت قاضيـا.

وتلـوح في الأفـق غنيمـة، فـتراه يتسـلل إليهـا بنفـوذه الرسـمي، أو بالنفـاق، أو بالمصانعـة عنـد الحاجـة، فيقـع عليهـا، وقلـما نجـا إنسـان مـن غزواتـه.

هـو عـالم، فيـما يدعـي، وهـو قـاض عـادل، وخليفـة في الطريقـة الرفاعية، أو غـير الرفاعيـة، ليـس يـدري الصبـي، وهـو «رخ الشـطرنج»، كـما يقـول عـن نفسـه، وهـو الحسـيب النسـيب، ومـع كل هـذا، إن كنـت صاحـب قضيـة ينالهـما نفـوذه، أو لسـانه نكبـك في منـال يـده منـك، أو كنـت «درويشـا» عـلى طريقتـه، مخدوعـا بشـعوذته ودجلـه، سـخرك للخدمـة في بيتـه، أو لأي عمـل في بسـتانه، أو كنـت وايـاه في السـوق وملـح فاكهـة طريفـة حبذهـا وحببهـا إليـك، فتشـتري، فيقاسـماك مـا أحـرزت بمالـك..

وإلى جانـب هـذه المناقـب... لا ينفـك عـن دعـوى الصداقـة عنـد حاجتـه إليـك؛ يؤكدهـا بالقسـم وبالدمـع يسـيل مـن عينيـه في يـسر، متـى أراد، وحينـما أراد..

ويـأتي يـوم فيجازيـه اللـه عـلى شروره وآثامـه، ويتعجـل في عقابـه، فيصـاب بلوثـة في عقلـه، فيغـث ويـرث بـين النـاس، وتكـون العظـة بالغـة.

وبعد فإن رأيت في طريقك يوما صورة مثل هذه، فاذكر صاحبنا أبا الدموع، لعل ذكراه تعظك فتجديك، كما أجدت محدثنا؛ فهو لا يقع على المبالغة في إظهار المودة، أو إبداء الاحترام، أو في الناس القربى، أو في أي شيء آخر، إلا وجد فيها معنى الكذب والنفاق والتغرير.

-١٤-

ويجتاز الصبي امتحانه الأخير في مدرسته، فيتجه إلى استئناف الدرس في بلد آخر. ولكن هذا يحتاج إلى المال. وهو يعلم أن أمه نفضت يدها -والعهد قريب- من آخر عقار ملكته. ويعلم كذلك بأن يد الوالد خلت قبلا مما كان يملك، وأنه اليوم ينفق من صبابة مال تكاد لا تفي بالكفاف.

وفكر بينه وبين نفسه، فيما يسعه أن يصنع ليبلغ هدفه، ويطول به التفكير، فيعيش زمنا على الخواطر الهاجسة. ثم تجود الفكرة فيذكر خاله في البلد الذي عليه أن يدرس فيه، فلقد سمع أمه، تذكر أخاها -وكان لا علم له به من قبل- وتتلهف على رؤياه، وتقول هذه أربعون عاما تصرمت، وما زالت الموانع قائمة دون اللقاء.

ويبادر الصبي، فيكتب إلى خاله ما شاءت الحداثة أن يكتب، وتهز الرجل رسالة ابن أخته، فيقبل عليهم بنفسه، وتتلقاه الشقيقة بدموع الفرح، فيتعانقان، ويجتمع الشمل الشتيت. ثم لا يمضي غير أيام فيجد صاحبنا نفسه في المركبة إلى جانب خاله، فتسير بهما يومين كاملين من الصباح إلى المساء حتى يبلغا مكانهما.

ويذكر الصبي، وإن طال العهد، حادثا طرأ في اليوم الثاني من رحلتهما. فلقد اصطدمت مركبتهما بأخرى، فانحدرتا إلى وهدة على جانب الطريق، ولكن الحادث مضى بسلام، وبقيت ذكراه في نفس صاحبنا تمده بالجرأة، وتلهمه الأمل في السلامة، إذ يواجه الشدائد والأخطار.

وبلغا المدينة في يومها ذاك، فوقع الصبي على وجوه لم يعهدها، ومناظر لم يأنس بها من قبل. فانتابه ما ينتاب الغريب من هذا الشعور الغامض المبهم يحسه الإنسان في بلد آخر، عند قوم آخرين. وظل في بيئته الجديدة أياما، يعيش خجلا فكنت تراه في الغالب منفردا بنفسه، مستوحشا، يخالجه الحنين لأهله وذويه. فلقد كان يجد عندهم أشياء روحية، ليس إليها، هنا، في الغربة من سبيل.

وكان حييا أكثر مما ينبغي، فإذا تكلم أو جز، وإذا جلس إلى الطعام، كفاه ما يدفع الجوع، ويمسك الحوباء. ولطالما أهاب بنفسه، زجرها عن هذا التهيب الملازم يسد عليه مسالك البهجة، ويقصيه عن مجالي الأنس، ولكنه في الواقع كان ملك أعصابه وكبريائه، أكثر مما هو ملك عقله وتفكيره. فلقد صبر كثيرا على الحرمان من أشياء كان شديد الحاجة إليها، وما ذلك إلا خشية أن يخدشه تصرف يقدم عليه فيورثه الندامة والأسى.

وتمشي الأيام، وتهون الأمور، فيما بعد، على صاحبها فيقبل على الدرس يجد ولا يتعب، ويعب ولا يروى. وإن كان لم يجد في مدرسته الجديدة شيئا غير ما عهد في السالفة؛ فالمنهج هو المنهج، والروح هو الروح،

والمعلمون كأنهم لم يتبدلوا، وليس من تفاضل بين المدرستين، إلا من حيث ارتقاء الصفوف.

وتنقضي أعوام الدراسة، فيعود صاحبنا إلى أهله، بادي الشباب، صليب العود، وقد اكتسب علما جديدا، وخبرة لم تكن له من قبل.

-١٥-

هو اليوم فتى يفكر أكثر مما كان يفكر من قبل. وتعنيه الحياة أكثر مما كانت تعنيه. ويقدر عظم ما على المرء أن يبذل من جهد، وينفق من طافة، لتسعه الدنيا، فيجد له بين الناس مكانة كريمة، يعمل فيه ويعيش. ويعلم أن لابد له من أن يقصد إلى الأستانة، منهل الثقافة العالية. ولكنه يتحسس ما عند أبيه وأمه، من مال فلا تقع يده على ما يتحقق الأمنية، ويسعف الامل.

وهو عظيم المطلب، كبير النفس، لا يطيق أن يتخلف، ولا يصبر على شعور القاعدين المتخلفين. فماذا يصنع؟ وما هي الحيلة يتذرع بها اليوم؟ وهو في مثل هذا الضيق والحرج..

فكر كثيرا، وجاب آفاق العقل، من قريب ومن بعيد، وعاش على أجنحة الخيال، وفي لحج من الحيرة أياما طوالا، وليالي ساهرات حالكات. فما اهتدى إلى رأي يتخذه، ولا إلى حيلة يحتال بها، فيصدق نفسه ما وعدها بالطب هدفا يسعى إليه لا للرزق فحسب، بل وليكون له أداة، ينذرها للإنسانية، فيداوي بها شتى الأمراض، ويضمد

الجـراح، ويـواسي البؤسـاء الموجعـين.

وتعلـن الحـرب العامـة الأولى، وصاحبنـا لا يـزال يعيـش عـلى همـه وقلقـه. وتقـوم الدنيـا، ويسـتطير الفـزع، وتنقلـب الأوضـاع عـلى أعقابهـا. فـإذا الجنديـة تسـتدعي الفتـى، فهـو اليـوم في سـنها. ولكـن روحـه تناهـض الحـرب، وليـس لعقلـه رأي فيهـا، ولا لمشـاعره ميـل إليهـا، وعنـده أن لا شيء أشـنع وأفظـع مـن أن يقتـل الإنسـان الإنسـان، إلا ذود عـن الحرمـات، وصونـا للسـيادة، أو دفعـا للتعـدي. وليـس في تلـك الحـرب شيء مـن ذلـك في نظـره.

ويحـزب الأمـر فتانـا، ويشـتد الخطـب عليـه، فلقـد كان يبيـت عـلى هـم، فصـار بيـت عـلى همـين، وكان يعيـش في غمـرة، فأصبـح في غمرتـين، وأصـدق الظـن أنـه يكتمنـا هـما ثالثـا أكـثر السـهر، وعـاف الطعـام مـن أجلـه، وليـس هـذا الكتـمان لعلـة تخجلـه، فيحمـرّ لهـا وجهـه، أو تفسـد عليـه دينـه، أو تخذلـه في مروءتـه، وإنمـا هـو لاتصـال همـه ذاك بالقلـب. وللقلـب حرمتـه ولـسره قدسـيته. ونحـن حرصـاء عـلى أن نبقـي خزائـن قلوبنـا مقفلـة دون غيرنـا؛ فهـي مـا نعيـش عليـه في سرائرنـا، نتعـزى بـه وقـد نشـقى، ويطيـب لنـا ذكـره، وقـد توجهنـا ذكـراه. ومهـما كان الأمـر، فنحـن أضنـاء بـه عـلى النـاس. ولكـن الـكلام قـد يسـاق للعـبرة وللخـير، وحديـث القلـب لذيـذ في السـمع، محبـب إلى النفـس، ولا سـيما حـين تخالطـه الموعظـة، ويرافقـه العفـاف، ومـا لنـا نطيـل، فلقـد أفـاق الفتـى عـلى نفسـه ذات يـوم، فالفـاه يقـول في نجـواه:

وليـت الحبيب يرى فصول روايتي

فيـما أحس من الهوى وأعاني

أهفـو فيرجعني العفاف مؤنبا

فأعـود من وجدي إلى نيران

وأظـل أخفق بين قلبي والنهى

لا تعجبـوا ضدان يختصمان

هـذا يذوب صبابة ويضج بالـ

شكوى وهذا آخذ بعناني

وأنـا أعيش على مرارة ذا الهوى

وصفـي روحي غافلا يلقاني

سـلمت مفاتنه ودمت معذبا

مر الهوى كحلاوة الإيمان

حلـت في البيـت المقابـل أسرة عريقـة المحتـد، عريضـة الـثروة. ولم تكـن هـذه الجـيرة الجديـدة مـما يكـترث لـه الفتـى، فهـي تحـدث كل بـوم فـلا تـترك في النفـس شـيئا يشـغل الفكـر، أو يلفـت النظـر، أو يحـرك الشـعور. ولكنـه أفـاق ذات صبـاح عـلى صـوت سـاحر يتلـو آي الذكـر الحكيـم.

«هـذا صـوت فتـاة، مـا في ذلـك شـك، وهـذا تجويـد قـارئ مجيـد ولا ريـب». ذلـك مـا قـال الفتـى في سره، وهـو يقـوم إلى نافـذة غرفتـه، فيفتحهـا ثـم تأخـذه حـلاوة الصـوت، وحـلاوة الترتيـل، فيظـل في مكانـه مستسـلما إلى هـذه العذوبـة الرائعـة، مـدة لا يذكـر أطالـت أم قـصرت. وتنقطـع التـلاوة، ويـرى الفتـى، في التـو، فتـاة رشـيقة تفتـح نافذهـا المقابلـة، فيقـع النظـر عـلى النظـر، ويخفـق القلبـان.

وتمـضي أيـام عـلى الفتـى، يوقظـه الصـوت السـاحر الغريـد، فيقـف موقفـه ذاك مـن النافـذة، فيصغـي وقـت مـن الزمـان، مسـتغرقا، حالمـا محلقـا في أجـواء السـماء مـع الصـوت الحلـو الرائـق، وهـو يرتفـع إلى اللـه. وتنهـي القـراءة، وتفتـح النافـذة المواجهـة، ويلتقـي النظـران، ويخفـق القليـان. ثـم يعـود الفتـى، وتعـود الفتـاة إلى مـا يشـغلهما مـن أمـر دنياهـما.

وتتعـارف الأسرتـان وشـيكا، وتتـزاوران، وتتصادقـان، وتتهاديـان وترتفـع الكلفـة، فتحـل المـودة.

واتفـق ذات يـوم، أن كان الفتـى خارجـا مـن بيـت أهلـه، حينـما كانـت الفتـاة مقبلـة في زيـارة تقـوم بهـا لأمـه، شـأن الجـيران حـين ينهـض حسـن التفاهـم بينهـم، وتقـوم صلاتهـم عـلى المـودة، فيقـف يفسـح لهـا الطريـق، احترامـا واكرامـا، ويـدور هـذا الحديـث:

- مـا فتحت نافذتي إلا رأيتك.

- وأنا ما صحوت من نومي إلا على السـاحر الغريد.

- أأعجبـك؟ وأنت تصغي إلي...

- أتسـألينني عما تعلمين؟

- ولماذا لا تقرأ القران الكريم فأسـمعك بدوري؟

- ليـت لي صوتـك! إذن لجعلت الكون يقف ليصغي!

- حذار من المبالغة!

- قلت بلسـان قلبي.

- آه! إنه لكريم.

- ولكنـه خفاق متعب.

- وهـل هو وحده الـ ...

ومـات الـكلام عـلى شـفتيها، فلـم تعـد تقـوى عليـه، فانصرفـت مهرولـة إلى الداخـل، ومـضي مهـرولا إلى الخـارج، وهـو يقـول في نجـواه:

هـل تعلمين بأن الله أعطاك

سـحر القلوب وللإغراء سواك؟

يمـشي إليك فؤادي أينما ائتلقت

الحسـن بارقة من نور مرآك

أو تشرفين على دنياي لانعطفت

علي بالرفق والتحنان يمناك

كتمت حبا زمانا استطب له

عقني القلب في طي ووالاك

وتمضي الأيام، فيزداد الاتصال بين الأسرتين، وعلى الأكثر بين القلبين. وتلم الفتاة بشيء من هم الفتى، وتعرف رغبته في طلب العلم، كما تعرف أنه على وشك أن يدعى إلى الجندية. ولم يكن خافيا عليها ما كانت أسرة الفتى تعانيه، من أجل ذينك المطلبين. ولعل علمها هذا، جعلها تفكر في صنيع تصنعه، فيكون وسيلة نقلها، وارضاء لحبها، ودفعا لهم الفتى، وقد أصبح همها. وما لبثت أن بعثت إليه بصرة ضمنها عدد ليس بقليل من الدنانير. وهذه رسالتها:

وحيد

أنا مقدمة بهذه الرسالة على أمر، لا أعلم تأويله عندك. وإن كنت لا أجد فيه ما لا يرضيك. فأنت تعلم بأن عهدنا الصدوق قد وحد دنياي ودنياك، ووثق ما بيني وبينك. وهذه هدية تمشي إليك على استحياء. وإني لأرجو أن يكون لها الحظ الذي اتمنى. وأعدك، حين تعوزني النقود، بأني سألتمس حاجتي عندك. ولي من حسن الظن فيك ما يتحد معه الرأيان، كما اتحدت العاطفتان، وخفق القلبان.

سليمى **١٩١٥/٨/٥**

ويطـول تفكـير الفتـى، ولكـن صـدر الإبـاء يثـور، وعـزة الرجولـة تحتـج، فلـم يملـك إلا أن يعيـد الهديـة وهـذه رسـالته:

سليمى! يا عزيزتي.

إلى أن ينقـضي العمـر، أنـا مديـن لهـذه اليـد الكريمـة التـي مسـحت بهـا عـلى كبـدي، لتـدرأي الهـم عنـه، ولكنـي أصدقـك نبـأ كبريـائي، فهـي فـوق مـا أجـد مـن دنيـاي الظالمـة هـذه، وأنـا أعجـز مـن أن أريدهـا عـلى مـا لا ترضيـه. ومـا أظـن إلا أني سأشـقى بهـا في غـدي، كـما شـقيت بهـا في يومـي، وإذ أسـألك غفـران هـذا الجحـود أقـول:

عيشي واسلمي

١٩١٥/٨/٥ وحيـد

نفـض الفتـى يـده مـن هـذه الرسـالة، وعـاد إلى همـه، ولكنـه لم يعـش عليـه إلا قليـلا، فلقـد ألهمـه اللـه فذكـر بيتـا صغـيرا، دخـل في ملكـه وهـو طفـل، هديـة مـن والـده أيـام يـسره، فوجـد فيـه ضالتـه، ولم يلبـث أن باعـه بيـع المضطـر، بثمـن بخـس، واشـترى نفسـه مـن الجنديـة، وهكـذا نجـا مـن بعـض همومـه.

واشـتد خطـر الحـرب، وادلهـم الخطـاب عـلى النـاس في البلـدان العربيـة الجاثمـة عـلى شـاطئ البحـر الأبيـض. فهاجـر إلى المـدن الداخليـة، مـع مـن هاجـر إليهـا مـن الأسر القـادرة، وغـير القـادرة. ويـأتي يـوم فـإذا الفتـاة مقبلة

مودعـة، ويراهـا الفتـى شـاحبة اللـون، حزينـة النفـس، كسـيرة الطـرف. فيشـتد عليـه الكربـان: كـرب الفـراق، وكـرب القلـق عليهـا، وقـف حائـرا جزعـا مستسـلما، ولكـن أمـر الرحيـل كان مبرمـا، فيذعـن للقضـاء، ويشـيعها بقلبـه وروحـه ودموعـه.

ثـم يعـود وفي القلـب هـما جديـدا فينطلـق إلى حيـث لا يـراه النـاس يبـكي، فيتمثـل بقـول سـحيم بـن أبي الحسـحاس:

ماذا بريد السـقام من قمر

كل جمال لوجهه تبع

ما يرتجي، خاب، من محاسـنها

أما له في القباح متسـع؟

غـير من لونها وصفرتها

فارتـد فيه الجمال والبدع

لـو كان يبغي الفداء قلت له

هـا أنا دون الحبيب يا وجع!

ولا يمـضي زمـن طويـل حتـى يعلـم الفتـى باشـتداد المـرض عـلى فتاتـه في غربهـا تلـك، فيحيـا مـن أجلهـا في الظـلام، عـلى قلـق وخـوف. ويفكـر في الأمـر فـلا يجـد بـين يديـه مـن حيلـة غـير السـفر لزيارتهـا، ويعقـد العـزم

ويشد الرحال، ولكن القضاء لا ينتظر أحدا، فيستأثر بروح غالية قلما جاد بمثلها القدر. ورد النعي على الفتى، فيعلم بأنها رددت ذكراه حينما كانت تجود بنفسها، وتستقبل أخراها. فنزل به الهم موجعا، والحزن طويلا ثقيلا، وكان فزعه عظيما. وفي يومه الأسود ذاك،

أحس أنه وحيد حقا، وأن طريقه وعرة موحشة، وأن ليس له من دنيا الناس، إلا أنه شقي معرق في الشتاء، وإن كان يرفل في ثوب إنسان سعيد. بل هو منذ يومه الفاحم ذاك، أو مهاجر أو هجرة، ولا يقع على مفاتن الجمال، أو محاسن الخلق، إلا ذكر فتاته الراحلة، وطلب لها الرحمة والرضوان. أما الدمع الصبيب من قلبه، وأما النار بين أركان نفسه. فهما بعض سره ووسيلته الضارعة إلى ربه.

-١٦-

ويحول حظ الفتى من دنياه دون مناه. فترغمه الأيام على خدمة الحكومة في وظيفة تقدم إليها بالفحص فنجح.

هكذا بدأ العمل مبكرا، وتحمل أثقال الحياة صغيرا، وسلك مسلكا لا خيار له فيه، وإنما كان الخيار لتكاليف العيش القاهرة. وكم في الدنيا من أحلام وأهداف وأدتها الأقدار، فأمست أشلاؤها منثورة، هنا وهناك، على طريق الحياة، تمر بها المصائر فتقهقه شامتة ساخرة.

وذهب إلى الديوان، فوجد مكانه في غرفة ضيقة بين موظفين اثنين. فتعرف إليها، وشرع يؤدي واجبه على تهيب وحذر، ولكنه ما لبث أن

أنـس برفيقيـه. وهـو يصغـي إلى هـذا الحديـث بينهـما:

- طـال ليلي، ولكن لم أنم!

- أفي حبيـب، أم حبيبـة كنت أرقا تفكر طول ليلك؟

- مـا أكـثر ظنونـك يـا رجـل! إني لأفهـم التفكـير في الحبيـة، أمـا في الحبيـب... فهـذا مـا لا عهـد لي بـه...

- ولكن أهذا غريب؟

- نعـم. وأكثر من غريب.

- أجهل أم تجاهل؟ نحن في زمان الشـهوات الطليقة.

- كـن في أي زمـان شـئت، ودعنـي مـن ظنونـك.. ولكـن فيـم كان أرقـك الليلـة؟

- في زميلنـا زيـور أفندي! هذا الذي مات من قهره...

- أطلـب الرحمـة للمسـكين وانزعـه مـن فكـرك. فـما يفيـد الحـزن والأسى، للراحلـين والمتخلفـين.

- كيـف! وذكـراه مـا انفكـت تـتردد عـلى خاطـري، وشـبحه مـا بـرح في خيـالي، يلـح كأنمـا يريـد أن يستشـهدني عـلى قسـوة الإنسـان عـلى الإنسـان.

- أحضرت الرجل في سـاعاته الأخيرة؟

- نعـم. ورأيـت آيات البؤس والقنـوط بادية الظلال على وجهه المكفهر.

- هانـت عليه الحياة فمضى!

- نعـم، إذ هان عليها!

- ولكـن لمـاذا أنزلـت درجتـه وأحيـل عـلى المحكمـة؟ كنـت في الاجـازة كـما تعلـم، وليـس لي علـم تـام بقصتـه.

- كانـت ابنتـه مريضـة، فواجـه نفقـات طارئـة، وحـاول أن يسـتدين فـما أفلـح، فأوقـع في الحسـاب خطـأ ليحصـل عـلى مـا يسـد نفقـة ابنتـه. هـذا مـا ظـن فيـه. ولسـت أصـدق هـذا الظـن.

- لقـد كان لـه مندوحـة مـن ارتـكاب هـذا الخطـأ -إن صحـت التهمـة- لـو أنـه بسـط يـده قليـلا.

- ماذا تقول!؟

- أقـول لمـاذا هـذه العفـة؟ ألم يبلغـك حديـث الحسـابات الكبـيرة في المصارف لبعـض الموظفـين مـن إخواننـا؟ فلـو سـلك زيـور هـذا السـبيل الـذي سـلكوا، لجـاءه مـن الأوراق الماليـة مـا ينفـق منـه، عـن سـعة: عـلى ابنتـه وغـير ابنتـه، ومـا يضمـن لـه طـرد الفقـر عـلى طـول الخـط...

- أريـد أن تصمه بالعفة الفارغة.

- لسـت أريد شـيئا. ولكن قل لي بماذا تفسر موقف الرجل؟

- أفسره بالرجعية في التفكير... على رأي من همهم أن ينعموا ويترفوا، وأن يجدوا المال من أي سبيل أني...

- كيف تطلب العفة في يومنا؟ وهذه الطائفة المعلومة من التجار تنثر الأوراق المالية، عشرات ومئات وألوفا، بل وعشرات الألوف، إذا صح ما تتداوله الألسن في المجالس.

- لماذا اخترت هذا التقسيم للأوراق المالية؟

- لأنها تعطى على قدر الضمائر، وإن شئت على قدر المناصب. فمن الناس من يبيعك بعشرة دنانير. ومنهم من يعز عليه ضميره بعض الشيء، فلا يرضي منك إلا بالمئات. ومنهم هذه الشخصيات من أرباب المناصب المالية، فأنت لا تجرأ على أن تمد إليها يدا دون أن تكون فيها الألوف... وإن كانت أهلا -وعند أنفسها- لأن تبيع ضمائرها بأقل من هذه الألوف... مئات أو عشرات...

- وما ذنب طائفة التجار وهي تطعم مما تأكل.

- لا ذنب لمن يكرم بماله. أما أن تستغل حاجة الشعب الفقير، فتأخذ منه كثيرا وكالمختلس باليمين، وتعطي كالمتفضل بعض الموظفين بالشمال. فأنت إذن مجرم مرتين: مرة بما أفسدت من خلق الموظف بهذا الإغراء، وأخرى بما امتصصت من دماء الجمهور، حين بعته حاجته بعشرات أمثال قيمها.

- لا تكـن جائـرا عـلى التجـار. أمـا تـرى بعضهـم يـوزع الـزكاة المفروضـة، ويسـاهم في بعـض الأعـمال الخيريـة؟

- ليـس لمـن يـؤدي الـزكاة أي فضـل، فهـي مـال اللـه أعطاهـا عبـاد اللـه، أمـا هـذه المسـاهمة في الأعـمال الخيريـة فهـي تـئن وتعـوي لـو أنـك أصغيـت إليهـا، وذكـرت كيـف، وتلبيـة لأي نـداء وقعـت.

- ومـا رأيك في هؤلاء الموظفين الذيـن أصابهم تخم الترف والنعيم؟

- لماذا هذا السـؤال الخبيث؟

- طلاء الموقف فقط....

- ألا توافقنـي عـلى أنـه حـان لمـن يتبجـح بدعـوى العفـة والنزاهـة، أن يصمـت!

- نعـم، وحـان له أن يندي جبينه أيضا!

- دعنـا مـن حديـث الموظفـين والتجـار. إني لشـديد التفكـير بـأسرة زيـور أفنـدي. ألا تعلـم إني قابلـت المديـر بالأمـس، أسـأله الموافقـة عـلى جمـع إعانـة لهـا مـن الزمـلاء.

- ليـس لي بذلـك من علم، وماذا كان الجواب؟

- لاذ المديـر بالقانـون ليخفـي كراهتـه للرجـل حتـى بعـد موتـه. ومـاذا يقـول القانـون؟

- لست أدري ولكن المدير في الدوائر يدعي بأنه يحظر جمع الاعانات في الرسمية.

- ولكن زيور المسكين كان موظفا وحقه على زملائه أن يساعدوا أسرته من بعده.

- قل هذا الغير مدرنا الرجل الطيب، القدير التنزيه...

- ألا تعلمني بسبب هذه الكراهة، فلست أعرف لها سبية.

- كان زيور أفندي شريفا في صلاته، نبيلا في أخلاقه، نزيها في مسلكه، وهذا هو السبب. أفلا يكفي عندك؟

- هو كاف وزيادة، عندي وعند من عرف صاحبنا المدير الجليل!

- آمنا بحق المدير في ألا يقرب غير الأشباه، ولكن القانون وضع للناس جميعا. فلماذا يقسو به على بكر، ويرحم خالدا.

- لعلك تشير إلى سانح أفندي الذي قيل إنه استباح مال الجامع، فبلعه على طوله وعرضه...

- نعم أشير إليه، فلقد ثبت هذا بالتحقيق كما تعرف ويعرف الناس، ومع ذلك فإن مديرنا الهمام لم يفعل شيئا، فهو قد احتفظ بأوراق الجريمة، وظل هذا السانح، نقي العرض ترمقه النواظر المغرمة... وهو في أوج العلى! وهل تستغرب من مديرنا أن يجعل الصيف والشتاء على سطح واحد؟

- لست أستغرب منه شيئا، ولو جمع هذه الفصول الأربعة على سطحه..

- ألا يدهشك أن تعلم بأنه في مجالسه الخاصة يطعن في سانح أفندي، ويذكر نفاقه ودسه، وضعف أخلاقه وذمته؟

- إذن، لماذا هذه الرحمة؟ أو هذا التغاضي؟ أهو الخوف من لسانه، أم من دسه، أم من ماذا؟

- هو الخوف من كل أولئك. ومن أشياء أخرى لا يجري بها اللسان.

- حقا أن هذا السانح أفندي مسعود في دنياه، فكأنه من مواليد ليلة القدر...

- أو لعله من مواليد النفاق البارع أيضا...

- ألا تراه حين يتحدث يعصر كيانه ويطوي ما بين شفتيه، ويحرك أعلاه يمنة ويسرة، ويدير حديثه على مثل دائرة لولبية تنتهي لتكر راجعة على ذات الطريق مثنى وثلاث ورباع، حتى يمل السامع، ويحس هو نفسه سخف ألفاظه المرددة وحينذاك يستأنف الكر بطة من رقبته ومطات من فمه يكوره، فتشفق عليه إذ تشعر بعظم المجهود الذي يبذله...

أغرب من هذا أن يمد عند أناس -يقيسون الكلام بطوله- آية في الفصاحة والذكاء.

- لقد أتقن الفن...

- نعـم، في بيئتنـا هذه. وعند مديرنا هذا؟

- حقـا إن هذا المدير لرجل مدهش.

- في ماذا؟

- أتعرف وجيه الطائفة الأرثودوكسـية.

- أعرفـه جيـدا، وأعـرف أنـه رجـل طيـب وشـديد الحماسـة لدينـه، قـوي الإيمـان بالسـيد المسـيح.

- وصلـت إلى الهدف من حيث لا تدري.

- لم أفهم منك.

- غضـب مديرنـا ذات يـوم، في ظـرف لا حاجـة إلى ذكـره، فسـب ديـن أحـد الأنبيـاء صلـوات اللـه وسـلامه عليهـم أجمعـين. وكانـت الوجيـه حـاضرا، فثـارت عصبيتـه لدينـه، وكادت تسـوء العقبـى، لـولا هـذا الإنسـان الـذي أراد الخـير للاثنـين فحسـم الـشر المنفجـر بينهـما. وليـس هـذا كل مـا في الأمـر. فلقـد مضـت الأيـام، فـإذا المديـر في مـأزق يحتـاج فيـه إلى رضـاء صاحبـه. فـما وني بـل تقـدم إليـه بطلـب الانجيـل هديـة ليقـرأه ويسـتفيد مـن تعاليمـه! ونـسي فعلتـه تلـك، كأن لم يصنـع بالأمـس شـيئا. فـماذا تـرى في هـذه الأخـلاق؟

- أرى ثعلبة لا ترتضيها الرجولة والخلق.

- ولكنها نفعت. وهي طريق المجد في بلادنا.

وانقضى وقت العمل على الفتى، وهو يصغي إلى حديث زميليه فعلى ما جعله يكره الخدمة في الحكومة منذ بدأها تحت إمرة رئيسه ذاك، وعرف في ألم لاذع، ويأس موجع، ولأول مرة في حياته الجديدة، أن مظاهر الكثيرين من الناس لا تحمل من معاني الشرف والنبل غير المعنى الذي يحمله السراب، وأن ما يقدمه لك من هو دونك، من ضروب الاجلال والاكبار، ومن هو أكبر منك من ألوان العطف والرعاية، هو في الغالب دون الحقيقة بكثير، أو هو شيء مزيف، وربما كان لغوا لا طائل تحته، وأن وفاء أشباه البشر إذا أنت امتحنت الوفاء شيء ليس له من الصدق نصيب.

-١٧-

ويواظب الفتى على عمله، في هذه البيئة التي ترى في الأخلاق غير ما يرى، وتجد المعاذير والمبررات لأشياء، ليس من السهل عليه أن يجدها، فيشعر بالعيش ثقيلا، فلا يطيب له، وبالحياة مرة، فيكرهها. ولكنه غير مخير، فلقد أرغمته تكاليف الحياة، على العمل في هذا الديوان وليس أمامه من سبيل سوى الصبر، فهو الأداة إلى الرضا بما لا بد منه.

وتمر الشهور، فيفيق على شيء من الخبرة، ويصطفي لوده زميلا،

لخلال فيه وجدها، وشهامة توسمها، وخلق رضي أعجب به، ولاتحاد في الأشواق، وتوافق في الشعور.

ويعلم الفتى بأن زميله هذا ابن حمال فقير، وأنه عصامي مقدام، تعلم اللغتين، الانجليزية والفرنسية في الكتب، وليس في المدرسة، فيكبر في عينيه، لهذه العصامية، ولروحه المرحة، ولهذه الشخصية الكريمة البارزة في شبابه الباسم، وعضلاته المفتولة، وهيكله الجميل.

وتزداد بينهما قربي الصداقة، ويزداد التفاهم الروحي، وتطوى الكلفة، ويفضي أحدهما إلى الآخر ببنات صدره، وأشواق قلبه وأحلام شبانه؛ فتتوثق الآصرة، وتحل الثقة، ولا يمضي زمان حتى يكونا قد اتفقا على أن يصرفا من الليل وقتا، في مطالعة الكتب المفيدة، يقرأ أحدهما، ويصغي الثاني، فإذا عثر القارئ رده أخوه إلى الصواب.

وحين كانت تعرض لهما جملة غامضة، أو يقعان على رأي طريف يأخذان في النقاش، ويتحاوران، وربما قام بينهما الجدل في بعض الأحايين، بل ربما قام قوية عنيفة، ولكنهما كانا، على كل حال يخرجان على تفاهم ووفاق.

أما الكتب المحببة إليهما، فكانت على الأكثر، هذه التي كتبها الدكتور جوستاف لوبون في علم الاجتماع، وترجمها إلى العربية أحمد فتحي زغلول الكاتب المصري المعروف. ولعل الصديقين مدينان لهذه الكتب بشيء كثير.

ولكـن صديـق الفتـى كان، في مجالسـه، يجهـر بظلـم أعـوان السـلطان، ويتنقـص الحكـم الـتركي ولا يتحـرج، وهـو إذ يسـوق الحديـث في مثالـب الأتـراك، يسـوقه سـاخرا لاذعـا، في جـرأة لا تعـرف الحـذر والاعتـدال، ولا تخـشى العواقـب.

ولعلـك تعجـب مـن هـذه المـرأة حـين تعلـم بأنهـا وقعـت في عهـد دولـة وصفـت الحريـة الشـخصية فيهـا بهـذه العبـارات:

ويبيـت المـرء في منزلـه، وعيالـه إلى جانبيـه، وهـو غـير آمـن، مـن أن يفاجئـه طـارق في دياجـي الظـلام، فيخطفـه مـن بـين ذويـه. إذا خطـا نظـر إلى مـا وراءه، خشـية أن يكـون لـه مـن ظلـه رقيـب عليـه. وإذا تكلـم مـع صديـق، أو رفيـق عـلى قارعـة الطريـق، تـراه يـكاد همـس همسـا، خـوف أن تبـدر منـه كلمـة تحتمـل التأويـل، كأن القسـطنطينية رجعـت إلى زمـن كاليغـولا في رومـه، والطـير نزلـت عـلى رؤوس النـاس كبيرهـم وصغيرهـم.

«ولا يكـثر عـلى كل مـن أقـام زمنـا في الأسـتانة، أو بعـض مـدن الولايـات، أن يؤلـف مجلـدا فيـما سـمع، أو رأى مـن غرائـب الوشـاة. ودونـك مثـالا واحـدا مـن أخـف مـا لقـي الأبريـاء مـن شره.

«عرفـت شـابا مـن أبنـاء التجـار، قصـد الأسـتانة لعمـل مـالي. وكان كثـير الـتردد عـلي، فـما مضـت بضعـة أيـام، حتـى أتـاني ووراءه ذنبـان وإني مـع كل مـا خـبرت ووعيـت مـن أخبـار الجواسـيس، عجبـت أن يكـون صاحبـي موضـع ريبـة، فيجـر وراءه هذيـن الذيلـين. فلـما جلـس وبقـي الرجـلان عـلى مقربـة مـن البـاب، سـألته عـما بـدا منـه حتـى بـات موضـع التهمـة.

فأقسم أنه لا يعلم سيما، وأنه لم يشعر إلا وهذان يتعقبانه، ويرافقانه كظله، فإذا مشى، مشيا، وإذا دخل بيتا، انتظراه لدى الباب، وإذا ركب عربة أو باخرة من بواخر البوسفور، ركباها.

«فظللنا نسمي أشهر لنقف على السبب، إلى أن أخذت الشفقة يوما ناظر الضابطة، فاسمه على ورقة مرفوعة إلى المابين، من واش يقول فيها: إن فلانا، أي صاحبنا، أتى الاستانة، قصد استطلاع أحوالها، قبل أن يذهب إلى باريس، وينشئ جريدة، ملؤها الطعن في الدولة، وهو ذو عزوة كبيرة، ومقام كبير، وله شهرة عظيمة بين كتاب العصر.

«وإني لو نفع القسم وقتئذ، لا قسمت أن فلانا هذا لا يعرف ما الكتابة في الجرائد، ولم يخط بحياته فيها حرفا، ولا أثر لتلك العزوة، وذلك المقام، ولم تخطر له تلك الفعلة ببال، ولو في المنام. وإنما هي مكيدة نصبها له رجل طمع في مشاركته في تجارته، فألما أبى أن يشركه معه، عمد إلى هذا الانتقام الدنيء.

«وهكذا بقي صاحبنا سنوات يتظلم وما من سميع. فلا يفرج عنه فيرجع إلى بلده، ولا يؤذن له بعمل يرتزق منه. وأنت تعلم ما تفضي إليه حاله بعد سنوات.

«وأنها مع هذا، مصيبة، لا تعد من كبار المصائب، إذ لم يؤذ الرجل بجسده، ولم يصادر ماله. وهذه القيود والأغلال في أعماق السجون، تكاد تشتبك غبطة لكثرة ما أثقلتها المعاصم والاقدام وهذه بنغازي وبعض المدن النائية، في أطراف السلطنة تضج منتحبة لا ترى من شقاء

المبعديـن. بـل هـذا البوسـفور يوشـك أن يغـور تلهفـا عـلى تلـك الجثـث، فيقـذف بهـا إلى ثغريـه، خشـية أن تبيـت دفينـة في بطـون الحيتـان».

تلـك حـال الحريـة الشـخصية أيـام سـلطان الـترك، قبـل الحـرب العالميـة الأولى فكيـف هـي وقـد أعلـن النفـير لهـذه الحـرب، واسـتحكمت حلقـات العـداء العنـصري بـين العـرب والـترك، وأخـذت آيـات الثـورة العربيـة تبـدو في إحـداث، أقلقـت رجـال الحكـم!

وتلـك جـرة صديـق الفتـى في إعـلان نقمتـه عـلى الاسـتبداد. فلقـد كان غريـب الاندفـاع، بـل عجيـب الاقـدام في هـذا السـبيل، فانتهـت إليـه الأنظـار، وأصغـت الآذان، وضاقـت بـه الصـدور، وترصدتـه العيـون، وسـاءت فيـه الظنـون، وهـو مـاض لا يبـالي بنصـح ولا يرعـوي مـما هـو فيـه بتحذيـر.

ويفكـر الفتـي في صديقـه، وفيـما ينتظـره مـن سـوء العاقبـة، وفيـما يـرده إلى الاعتـدال، ويبعـده عـن موطـن الخطـر. فيهتـدي إلى فكـرة قضـاء أيـام في لبنـان. فالوقـت صيـف، والجبـل جـذاب محبـب إلى نفـوس مـن عرفـوه، وذاقـوا حـلاوة العيـش تحـت سـمائه، فـوق الأرض السندسـية، عـلى القمـم أو السـفوح، وفي الوديـان، خـلال أعـواد التـوت، وتحـت العرائـش، وفي ظـلال الأرز، بـين أحضـان الطبيعـة الفاتنـة، وعـلى مشـاهد الاوانـس الغيـد.

فكـر الفتـى في هـذا، ليشـغل صاحبـه عـما كان فيـه، علـه يـرى جديـدا، فيلهيـه الجديـد، وإن كان التجسـس الحكومـي في تـلاش الأيـام عامـا، وخطـره قـد حـاق بالنـاس جميعـا. وتنفـع الحيلـة، ويمـضي الصديقـان مـن فورهـا إلى التـماس الاجـازة، وإعـداد الأهبـة. فـإذا انقضـت أيـام، فنحـن نـرى صاحبنـا

وصديقه يشرفان على الدنيا الجميلة في «بحمدون».

أمامك السفح ينحدر إلى الوادي، فينحسر عن الهضاب الخضراء والأشجار الريانة، بينها القرى الجميلة. تلوح هنا وهناك، موصولة الحواشي، بالمدارج والشعاب تغيب في المنعطف، وتبدو في الثنية فيزدان الجبل، وتبسم الدنيا، ويفرح القلب.

وأمامك البحر، موصول الرقعة بالأفق، متحد اللون بالقبة الزرقاء، مبرقش الصفحة بهذه الأمواج البيضاء، تشق طريقها في الزرقة الشفافة، هادئة أو ثائرة، تلاعب النسيم، أو يلاعبها النسيم، ولعلها، بعد هذا كله، تومض إلى حكمة الخالق في حركة الكون الدائبة.

ويعتاد الصديقان أن يقصدا الأماكن المشرفة، وكل لبنان أماكن مشرفة؛ فيختلسان الهواء النقي المنعش من رؤوس القمم، ومن بين الأشجار في الغابات والادغال، فيشعران بالنشاط، ويستمتعان بالدنيا وبالشباب.

وذات يوم بينما كانا عائدين إلى مثواها، رأيا النهار والليل محتدمين في غادة راهبة، صنعها الله مثالا لقدرته على الابداع، وتركها تروح وتجيء في جنات لبنان: معرض الجمال في دنيا الأرض. وكانت في وقوفها على قبر في جوار الكنيسة كالملاك في صورته، والعابد في خشوعه، والتقي في وقاره، والحزين في صمته.

ويحترم الفتيان قدس خشوعها، فلا يتحركان، لئلا يذهب المعدات الجلال، ويتكلم الهدوء. وتطيل الوقوف، ويطيلان التسبيح الهامس،

عـلى هـذا المشـهد الفاتـن البديـع. ثـم تحـس وجودهـا عـلى مقربـة منهـا، فتلتفـت فتراهـا فتنطلـق إلى الكنيسـة في تواضـع العبـاد، وجـلال الاطهـار. وينطلقـان إلى مثواهـما يـرددان التسـبيح، ويقدسـان الفتنـة غـير المضلـة.

ويتحـرك قلـب الصديـق للراهبـة الحسـناء بالحـب والشـوق والأمـل، ويظـل بقيـة يومـه، وطـول ليلـه، يفكـر ويحلـم. ثـم يـأتي الغـد، فينهـض يرقبهـا ليشـهد الجـمال والهـلال في وقفـة الأمـس. ويعيـش أيامـا عـلى الحـب والشـوق والرجـاء، فـلا يحـدث رفيقـه إلا بحديـث جمالهـا الريـان.

وذات يـوم يكونـان في الحديقـة المطلـة عـلى الـوادي. فتهـل الراهبـة بقامتهـا الرشـيقة، ووجههـا المـضيء، فتجلـس عـلى مقربـة منهـا، وتأخـذ تقـرأ في كتابهـا عـلى غـير انتبـاه منهـا إليهـا. فيهتبـل صديـق الفتـي فرصتـه السـعيدة هـذه، فيجهـر متسـائلا فيقـول: «أليـس في كتـاب اللـه: هـذا المفتـوح أمامنـا جميعـا، مـا يغنـي عـن مطالعـة الكتـب المسـطورة؟».

وتفيـق الراهبـة عـلى هـذه المفاجـأة، بنظـرة مسـتطلعة، فيبـادر الشـاب الجـريء فيوجـه إليهـا الحديـث:

- أتسـمحين بأن أتعرف إلى هذا الوجه الجميل البارع؟

ونظـر إليهـا نظـرة فيهـا بعـض الخـوف، وشيء مـن الأمـل. فاحمـرّ وجههـا، وأغضـت تفكـر عـلى اسـتحياء ثـم رفعـت رأسـها تقـول بصـوت هـادئ رزيـن:

- أينما وقع بصرك فثم وجه الله. مجد الرب، تصل إلى حظيرة المساء.

- لست أريد زاد من كلام سيدنا المسيح، فأنا من فلسطين المقدسة، ونحن الذين وزعوا آياته على الناس. ولكن خافقي... في وجيب، منذ رأي الفتنة تعيش في الظلام. (وأشار إلى مسح الراهبة) وأنا إنما استجدي الرحمة، وأملي أن يتسع هذا الصدر السمح لحي المجنون...

فعادت إلى أطرافها، وظل الحيرة يمشي على الديباجة الرقيقة الناعمة، ثم رفعت رأسها ورمته بنظرة رحيمة مشفقة -كالتي يلقيها الكبير على الطفل حين يعبث بما يثير الدهشة والاستغراب في النفس- وقالت مترفقة:

- لو كنت أصلح للغزل، أيها الشاب الجريء، لما رأيتني في هذا الكساء. كرّس قلبك وشبابك لأخرى... ممن يفهمن هذا الشيء الذي أنت في سبيله.

- ولكني أرى الجمال والشباب مسجونين في هذا الثوب الظالم، وأريد لها الحرية، عل اليد الناعمة تمسح على قلبي، فيهدأ وينعم بالحب البريء، يعقد على سنة الرب. فما أنا بالغوي الفاجر. أما غيرك فلا رأي لي فيه، وما أنت إلا ضالتي.. فنظرت إليه طويلا، وقالت في حنان ظاهر:

- لقد جعلتني أحبك، أيها الشاب المجنون. ولكن حذار أن تخطئ، فأنا أحب من نوع آخر غير مفهوم.

- وكيف... يا راهبتي الجميلة! يكون الحب غير المفهوم هذا.

- آه! لسـت أقدر على افهامك.

- أتسـخرين؟، أو لعل في الأمر قصة.

- لست أسخر.

- مـا زلت في ظلام، وأنا أحب النور...

- اسـتمع، يا صديقي الجريء! أنا أرض جدباء لا تعرف الربيع.

- آه! هـذا لغـز محير حقا! وأنـا لا أطيق الألغاز، وإنما خلقت للصراحة.

- ترفـق، ولا تدخلني في التجربة.

- آه، لو تسمعين.

- آه، لو تعقل!

- أنا عند عاطفتي.

- وأنـا عنـد معرفتـي.. لقـد كرسـت لـك قلبـي، فـلا تمنعيـه مـن أن ينهـل مـن معـين الحـب الطاهـر.

- لا تترك الشـيطان يتكلم بلسانك.

- لسـت أريدك على الإثم بل على الحب الطهور.

- ولكنـي لا أعـرف الحب الذي يعرفه الناس...

- وماذا تعرفين إذن؟

- أعـرف شـيئا لا تفهمـه أنـت، ولم يفهمـه غـيرك مـن قبـل، واحسرتـاه! وأصـدق الظـن أني محرومـة مـن هـذا الـذي يثـيرك ويثـير غـيرك، فأنـا إن شـئت شيء مـن شـذوذ الطبيعـة.

- أنـت شيء مـن شـذوذ الطبيعـة... وكيـف هـذا! ألسـت في أجمـل جسـم، وأحسـن عافيـة؟ ثـم أتجحديـن أن اللـه خلـق الجـمال، وخلقـه للحـب؟!

- لسـت أجـدد مـا ذكـرت، ولكنـي أفهـم الحـب عـلى غـير مـا تفهمـه أنـت، ويفهمـه النـاس.

- أعـود إلى ما كنا فيه آنفا؟!

- نعـم: لتعي ما أريد.

- هل تقصدين أنك أسـمى عاطفة من الناس جميعا؟

- أقصـد أني محرومـة مـن هـذه العاطفـة. والآن أرجـو أن تسـمح لي بـأن أذهـب إلى واجـب ينتظـرني.

- ولكـن عـلى أن أراك في الغـد، هنـا في مجلسـنا هـذا، وفي ووقتنـا هـذا، وحـذار مـن حـي المجنـون..

- لك مـا تريد، أيها الفتى العجيب!

ونهضـت الراهبـة الجميلـة إلى واجبهـا؛ ومـشى صاحبنـا العاشـق المفتـون

ببـث الحـسرات والآهـات والأحـلام. ويتحـرق شـوقا إلى الغـد الموعـود، أمـا الفتـى فـراح ينشـد بلسـان صاحبـه:

وراهبـة في «بحمدون» رأيتها

فراح لسـاني للإله يسبح

مفاتـن خلق الله فيها تألقت

وفيهـا النور الله ملقى وملمح

تقربت منها في خشـوع ورهبة

وقلـت لعلي بالتقرب أفلح

وطارحتهـا ما قد وجدت من الهوى

فقالـت وهل عندي لوجدك مطرح؟

إله السـما قد خصني بحاله

وشـاء لي النسك الذي هو أصلح

فـان كنت عفا، فالمحبة حلوة،

وإلا فدع شـيئا يشين ويفضح

وينقـضي اليـوم في التطـواف والأحاديـث، والليـل في السـمر والأحـلام. ويـأزف موعـد اللقـاء فيحـترم الفتـى قلـب صديقـه، فيتركـه يذهـب وَحـدا

إلى حسناته الراهبة، ثم لا تمر ساعات حتى يعلم من صديقه بأنها:

أقبلت عليه تتهادى وقد افتر ثغرها بابتسامة حلوة فيها كثير من الرضا، وفيها بعض التحفظ، وشيء من الحفر أيضا، ثم جلست تقول:

- كنت بالأمس طفلا يعبث، واليوم أريدك أن تكون عاقلا.

- هذه فاتحة ظالمة كثوبك كهذا. وأنا أريدها مضيئة كوجهك رحيمة كقلبك.

- اسمع يا طفلي العزيز. سأحدثك بشيء لا أعلم ماذا يكون وقعه في نفسك. ولكني أعلم أني أصدقك الحديث، وأريحك من هذا العبث:

- أخذ الظلم يتكلم.

- لست أظلمك، وإنما أريد لك الرحمة، فاسمع.

أذكر أنك، في البدء، رأيتني أقف على ضريح ثوى صاحبه منذ شهور، وكان أملي من دنياي، فهو خطيبي. واعترف بأني ما لبست مسح الرهبانية، من بعده، إلا من أجله. فلقد كنا حبيبين حقا، ولو خيرت ما اخترت سواه من الناس جميعا. ولكنه كان ثأر العاطفة مرهف الشعور، أما أنا فلا أعرف من إحساس الحب غير ما أجد بين الأخت وأخيها. فكان لا يقع عندي على ما يحب ويتمنى، فيسيء الظن، ويرتد حزينا موجعا؛ كاظما لا يبوح بما يجد. ولعل هذا فعل في نفسه ثم في صحته؛ فأخذ جسمه يذوب، ولونه يشحب وأنا غافلة غافية.

وتمضي الشهور؛ فإذا مرضه يشتد ويزداد فيقضى عليه واحسرتاه! وها أنا اليوم وحيدة بلا أمل. وما كان أمامي إلا أن أنذر نفسي للسيدة العذراء؛ وأنت تراني قد فعلت.

وليت علمي وقف بي عند هذا الحد! إذن لهان عليّ بعض هذا الحزن الطويل؛ والهم الثقيل. ولكني قرأت يومياته الحزينة الباكية؛ وكنت لا علم لي بها من قبل، فرأيتني أمام أشياء غريبة فيها ظنون بعيدة، وفيها خوالج حارة، وأوجاع بالغة كان يحسها ويحبسها بين جنبيه.

ولقد أخذتني الحيرة، وحاقت بي الدهشة، ولما لم أجد لما قرأت موجبا في نظري، أو تعليلا يسكن إليه قلبي، حدثت طبيبي، ووصفت له ما كان بيني وبين الراحل الغالي، فعلمت إني كنت منه كقطعة الثلج من الجذوة المتقدة، وأن هذا الذي أنا فيه يعرفه الطب، وإن كان نادرا، ويسميه غياب الإحساس التناسلي، أو برود العاطفة الجنسية.

ولعلك تدهش إذ تعلم أني برغم ما بذل الطبيب من مجهود غير يسير، ما زلت أجهل هذه المتعة التي يسعد بها الناس فيما يذكرون، وما أحسبك بعد الذي قصصت عليك من أمري وأمر صاحبي، إلا منصرفا عما أنت فيه. فأنا يا صديقي لا أصلح للحب الذي تريدني عليه. فلقد خلقني الله للنسك، وليس للهوى....

- حسي منك أن أكون أخا. فهل تبخلين بالحب على هذه الشريطة؟

- بل أرحب فرحة. سلمك الرب وحمتك العذراء.

- إني إذن لسعيد.

واتفق الاثنان على اللقاء ما دام في الجبل، وعلى أن تكتب إليه. ويكتب إليها من بلده، واستأذنت، فودعها بالحب والاحترام، ثم عاد إلى صديقه قص عليه بقية الحديث.

وتمر الأيام على صاحبنا، وهو معلق القلب، موصول الأنس راهبته الحسناء، ولكن الاجازة تنقضي، فيغادران لبنان إلى العمل المرهق، والحياة القلقة الخائفة، ويعود الفتى إلى التفكير فيما يجنب صديقه خطر لسانه في ذلك العهد الرهيب حقا، ولكنه يفاجأ بالنقل إلى وظيفة أخرى في بلد آخر، فيمضي إلى طيته، والحزن والخوف من قلبه، ثم ما لبث أن علم وهو في مكانه الجديد. بأن الحاكم العسكري رأى في صاحبه قربانا يتزلف به إلى رؤسائه العطاش إلى الدماء...، فجعله، في تقاريره إليهم، على صلة وثيقة بالجيش الانجليزي في مصر، يطلعه على أنباء الدولة، بواسطة قوارب الصيد!!!

وقدر الله الشاب الجميل الجري أن يموت، حين حكم عليه الاعدام شنقا، وراح كما راح غيره من شباب العرب الصارخ في وجه الظالمين.

ولم يمض يوم على هذا النبأ الذي امض الفتى، وفجعه في صديقه بالحميم، حتى وصل إليه كتاب كان الراحل قد أوصى بأن يرسل إليه سرا، فإذا الموضوع، مثالب الحكم التركي، وإذا العنوان: «عبرة وذكرى».

وهنا جاشـت عين الفتى، وتحرك خاطره، فأنشـد في رثاء صاحبه:

غـاب الذي يملأ الأبصار مطلعه

وإن تكلم راح القلب يسـمع

فارقتنـي وفؤادي بعد في وجع

من شـكله، ما لرزئي فيك يشفعه؟

أيـن الأماني؟ أمانيك العذاب مضت

أنـت الذي إن عصاه الصعب طوعه

قـد كنت للوطن الغالي ذخيرته

لا تأتـلي جاهدا فيما يرفعه

وكـم بذلت لتقضي بعض واجبه

والنـاس تعمل فيها فيه مصرعه

حتى قضيـت فكنت الوعي منبعثا

والسـهم منطقا للضيم تدفعه

وتـدور الأيـام بالفتـى، وحزنـه الحـي ينفـق مـن عافيتـه، وشـعور النقمـة يـلازم نفسـه، فلقـد أوجمـه مـوت صديقـه وشـيكا وشـنقة، وكان وجهـه بالغـا ممعنـا، فهـو -فيـما يـرى- لم يـأت أمـرا إدا، إلا مـا نفـس بـه الغمـة عـن صـدره، وفـرج الكـرب عـن نفسـه، وأعـرب عـن رأيـه، ودافـع عـن قومـه.

وذات يـوم يفيـق عـلى صلـة ود جديـدة، ألفـى قلبـه يمـت بهـا إلى زميـل تـركي، تقاربـت بينهـما الأخـلاق، وتوافقـت الخواطـر، ونحـن نـرى صاحبنـا قـد أنـس بعـض الأنـس بصديقـه الجديـد، ولا سـيما حـين وجـده ينقـم عـلى القائمـين بالأمـر مـن بنـي قومـه، مـا اسـتباحوا مـن قتـل النفـوس البريئـة، ومـا أتـوا مـن نفـي الأسر العربيـة الكريمـة، وليـس مـن شيء يدنيـك مـن قلـوب الآخريـن، أو يـدني الآخريـن مـن قلبـك، أكـثر مـن توافـق المشـاعر، واتفـاق الآراء، وكـما كان التوافـق في الشـعور، والاتفـاق في الـرأي مقربـة إلى القلـوب، كان التحالـف في الإحسـاس، والتبايـن في الحكـم مأتـاة للتناكـر والتباعـد بـين النـاس.

وبينـما كان صاحبنـا وثيـق الصلـة بزميلـه ذاك، وردت أنبـاء الثـورة العربيـة، فراحـت الأفـواه تتهامـس بحديثهـا، واسـتقبلتها القلـوب بالفـرح، ونشـطت بهـا العزائـم، وانتعشـت الآمـال، ونيطـت بسـيد قريـش الجديـد - طيـب اللـه ثـراه- وتخـف، مـن بعـد، وطـأة القـوم قليـلا، ويفيقـون عـلى عظـم مـا أثمـوا، وكبـيرة مـا جـاروا واجترحـوا، فيهونـون عـلى النفـوس بعـض الهـوان،

ويأخـذون في التقـرب إلى بعـض العنـاصر، ويحاولـون اسـتغلالها بالذهـب تـارة وبالشـعور الدينـي أخـرى، تـم بـكل مـا تصـل إليـه اليـد الحكمـة مـن وسـيلة وأداة، فيكـون لمحدثنـا مـن هـذا الانقـلاب المباغـت، بـاب للحديـث الصريـح يـدور بينـه وبـين صديقـه الـتركي:

- أرأيـت مـا آل إليه الأمر أخيرا بين قومينا؟

- هـذا ما كنت أتوقع، وأنا أرى المقدمات.

- قـل رأيـك -بالله عليك- أينا جار على الآخر؟

- لسـت أكذبـك مـا أعتقـد. إن رجـال الحكـم منـا هـم الجائـرون، فيـما يلـوح لي.

- هـل هـذا شيء جديد، فيـما تظن، أو هو قديم منذ عرف الترك العرب؟

- أظنه قديما منذ أيام الدولة العباسـية.

- هل من شـاهد عندك يرجع إلى عهد السـلاطين؟

- وضعتنـي في موقـف حـرج، فليـس أبغـض عـلى النفـس مـن ألا يجـد المـرء مناصـا مـن أن يفهـم قومـه. عـلى أنـك لسـت في حاجـة إلى شـاهد، فالشـواهد أمامـك عـلى المـاضي كثـيرة، وعـلى الحـاضر أكـثر ولكنـي مفـض

إليك بحكاية قد لا تكون قريبة جدا من موضوع حديثنا، ولكنها تعطيك فكرة فيها بعض المغزى:

آلت الخلافة إلى السلاطين العثمانيين، فأراد أحدهم أن يضرب المثل على أنه اختص العرب بميله وقلبه، فاختار نفرا من قومك أعوانا، إلى جانب أعوانه من بني قومه.

وكان بين ما اختار من العرب شخص أخلص الخدمة للدولة ما وسعه الاخلاص، وأحسن العمل ما وسعه الإحسان، ولم يلوث قط يده أو لسانه. ولكن الذين يعيشون في القصور، قلما اخترقت ابصارهم جدران الابناء المزخرفة، فهم لا يعرفون عن الخارج غير المكذوب المزيف، ويعيشون بين المظاهر، وفي أحضان التقاليد، في شبه غفوة أو غفلة. ولعل سلطانهم على الناس جعلهم لا يرضون إلا عن الزخارف، ولا يسمعون إلا الحديث المزور!

أما الرجل الذي نحن في صدده فكان لا يرى من واجباته أن يموه ويزور ويطري ويقرظ، فهو لم يعرف هذا في بيئته، ولم يعرفه في طبيعته، وأخيرا أحس أنه الغريب بين هؤلاء الناس من أعوان السلطان، وأن مكانه يجب أن يكون غير هذا المكان. فالتمس السلامة في الاعتزال، فأبت عليه ظروفه إلا أن يصبر على العبء الثقيل، فصبر، ولكن وجع الفقوس يفضي، في الغالب، إلى وجع الأبدان.

وقـع هـذا، فيكـون للرجـل مـن اعتـلال صحتـه فرصـة لاعتـزال الخدمـة، فيغتنمهـا، وتعـود إليـه العافيـة، ورضي عـن نفسـه، وتـرضى هـي عنـه.

ولكـن صاحـب الجلالـة لا ينـسى صاحبنـا العـربي فيذكـره بعـد ثـلاث سـنين مـن مرضـه واعتزالـه! فيبعـث إليـه برسـول يقـول:

- وأمـرني جلالـة السـلطان بدعوتـك إلى المائـدة (الشـاهانية) إن كنـت في صحـة تسـاعدك عـلى التلبيـة!!! فيدهـش الرجـل، لأنـه يعلـم بـأن صاحـب الجلالـة صاحـب أدب رفيـع، وذوق سـليم. فكيـف وقعـت الدعـوة بهـذا الشـكل الغريـب!

ولكنـه لا يـرى في التسـاؤل طائـلا. فيجيـب الرسـول: «بلـغ جلالـة السـلطان أني في صحـة جيـدة، وعافيـة طيبـة، ولكنـي لا أحـب أن أخيـب ظنـه... فأنـا أعتـذر، وأدعـو لـه بـدوام العافيـة».

وعلـق الـتركي عـلى هـذه الحكايـة بقولـه: «لعـل صاحـب الجلالـة أراد أن يؤكـد عطفـه عـلى المـربي بالـكلام... ولـو بعـد ثـلاث سـنين، وإن شـئت فقـل بالدعـوة الغريبـة في شـكلها... إلى المائـدة (الشـاهانية)».

أنهـى حديـث الصديقـين. والملـك لا تعجـب حـين تعلـم بـأن الألفـة دامـت بينهـا إلى مـا بعـد جـلاء الأتـراك عـن هـذه الديـار، فلقـد اختـار زميـل الفتـى، الوطـن العـربي وطنـا جديـدا. وربمـا كان لرأيـه في قومـه بعـض الأثـر فيـما اختـار.

لم تكن مصيبة العرب في العهد التركي مقصورة على التحكم في الأموال والرقاب، والاستبداد بأمور السياسة والادارة والتعليم، ومحاولة كم الأفواه، واخفاء التراث العربي، واضعاف الأخلاق الوطنية؛ لم تكن مقصورة على هذه الأخطار، ففي ذلك العهد ذر قرن الصهيونية، فاسترخى له بعض الحكام، بما لا يخفى على الناس من هذه الوسائل التي تخصص اليهود بالفطرة في التذرع بها، وبذوا الشعوب كافة بما أصابوا على يدها من خير ونفع. فرأت الأعين في فلسطين أوليات المستعمرات اليهودية، رغم ما وضع من القيود والموانع. الرسمية في سبيلها.

كان الناس -فيما يذكر الفتى- عائشين في جهل وفقر وغفلة وشمل شتيت، فباعت هذه الأدواء الأراضي من اليهود، ولم تبعها القلوب، وليس بالأمر العجيب إن سطا الذئب على الحمل حين يسيب على غير حراسة.

وتنبه في إحدى المدن الفلسطينية أفراد على الخطر الداهم، فتعاقدوا على حرب الصهيونية، وكان صاحبنا الفتى أحدهم، ولا زال إلى اليوم يذكر حماسة ذلك الشيخ الضرير الذي ارتأس الحزب، وكان خطيبه، وحماسة أحد الصيادلة وكان فيه العضو المرجى، ولكن ماذا فعل هذا الحزب؟ كان قصاراه، إقامة الحفلات للخطابة. وتحبير المقالات للصحف، إلى جانب الكلام على خطر الصهيونية.

أما العدو اليهودي فكان جادا في البناء والإنشاء، ماضيا في شراء الأراضي، غادا في سيره ينشد بعث الثقافة واحياء الوطنية اليهودية، متخذ جميع الذرائع مشروعها وغير مشروعها إلى أهدافه وأمانيه الطامحة.

وأدرك الفتى أن الهمم والعزمات ليست من الحفاظ على قدر ما يدرأ الخطر، ويحمي الذمار، وأن الاستعداد مقصور على طلب السلامة والراحة، في ظل الكلام، وأن الطاقة عاجزة عن الجهد الشاق الطويل. فوضع يده على قلبه عند هذه الحية، وأخذ ينتظر يوم تبعث العزيمة، ويفيق الوعي، وتحول الحال إلى الحد المقدام.

ليس من شك في أننا نطلب السلامة جميعا، ولكنها تختلف على من ينبغي أن ينهض بهذا الأمر، وكيف يجب أن نمضي فيه، أو كيف نصل! ويرى محدثنا أن لا سبيل إلى قيام الوحدة في الرأي، والوحدة في السعي، إلا على يد قيادة تخاطب النفوس، وتمسح على القلوب، وتذهلنا عن التنافس في طلب الجاه، واستغلال غفلة البسطاء. فهل لفلسطين الواعية الشابة أن تثبت رشدها فتقع على هذه القيادة؟ ذلك ما سيجيب عنه الزمان..

شعر الجمهور بالخطر، ويكافح قبلما يفكر، ولا رجع في الحقيقة إلى رأيه، أو يقف على الأقل ليروي ويتدبر، سوى نفر قليل من الناس. فهل لفلسطين الشابة الواعية أن تعرف مكان هؤلاء النفر فتخرجهم إلى الميدان؟، فهم وحدهم -وليس غيرهم- القادرون على تزويدها بما تحتاج إليه من مال وخبرة واخلاص وفراغ للعمل، وهم وحدهم

القـادرون عـلى الجـواب عـن هـذا السـؤال: كيـف نحمـي الذمـار؟

أمـا الذيـن غرتهـم الحيـاة الدنيـا، واسـتهواهم مالهـا وعرضهـا وزخرفهـا، فعقـوا بلدهـم، بمـا كـبر إثمـه، وجـل خطبـه، وكان لليهـود خـيره، وللعـرب ضـيره وشره؛ فأولئـك نتركهـم للتاريـخ... وإن كان رجاؤنـا أن يحسـوا بعـد اليـوم، كبـيرة مـا اجترحـوا، ووجـع مـا جرحـوا، لعلهـم يرعـوون، والى ربهـم ووطنهـم يرجعـون...

وقبيـح بنـا وإن قدم العهد، هوان الآباء والأجداد.

-٢٠-

خـرج الفتـى مـن جـماع مـا ذاق مـن بـأس زمانـه، ومـا مـر بـك مـن ذكرياتـه، بـرأي لا يـدري مبلغـه مـن السـداد. ولكنـه يتخيـل فيـه السـلامة، ويتوسـم العافيـة. فهـو يعتقـد بـأن الاقتصـاد لا يقـف، فيـما ينفـع النـاس، عنـد الحـدود الماليـة، بـل يتعداهـا إلى مـا يصلـك بالآخريـن. فأنـت حـين تقتصـد ولا تـسرف، فيـما تعقـد مـن أمـل، وتعلـق مـن رجـاء عـلى صلاتـك بغـيرك، تكفـل لنفسـك الكثـير مـن الراحـة والرضـا، وتجنبهـا تعـب المـال، وقلـق الخاطـر. فليـس مـن شيء، عنـد صاحبـة أوجـع مـن رجـاء خائـب، وأمـل ضائـع.

ولعـل رأيـه هـذا قائـم عـلى الظـن بـأن القلـوب ممسـكة ضنينـة بعواطفهـا، لا تبـذل، في الواقـع، غـير القليـل، وأن اللسـان إنمـا يكـرم بمـا ليـس يملـك، فـلا تهويـل عـلى مـا يعطيـك.. وأنـت خليـق إن رافـك رأي الفتـى بـأن تعـرف

مـدى الطبيعـة البشريـة، فـلا تـترك رقعـة آمالـك في الآخريـن تتسـع لأكـثر مـن هـذا المـدى، ولـن يكـون أسـفك، مـع الاقتصـاد، عظيـما، كـما لـو تركـت نفسـك عـلى سـجيتها، تفـرض لـك الحظـوظ بالكيـل الأوفى، ثـم لا تقـع يـدك منهـا عـلى طائـل.

قـال الأحنـف بـن قيـس: «مـا كشـفت أحـد عـن حـالي عنـده، إلا وجدتهـا دون مـا كنـت أظـن».

وأثنـى رجـل عـلى عـلي بـن ابي طالـب رضي اللـه عنـه، وكان لـه متهـما، فقـال: «أنـا دون مـا تقـول، وفـوق مـا في نفسـك». رحـم اللـه هذيـن الرجلين الكبيريـن، فلقـد نفـذا إلى العلـة الغالبـة في الفطـرة البشريـة.

وينفعـك الاقتصـاد أيضـا، حـين لا تـسرف في تقديـر مصائبـك، وتلقاهـا عـلى أنهـا شيء لا بـد منـه في الحيـاة، فتبـدأ العمـل مـن جديـد، مهـما كانـت خسـارتك أو آفتـك، أو كان عثـار جدلـك؛ فأنـت إذ تـرضى بدنيـاك عـلى عيبهـا، وتسـتقبل أحداثهـا بهـذا الادراك، تجـد السـبيل إلى اصـلاح حالـك، ولم شـعثك. وربمـا جئـت بالمعجـزات، وبالآيـات البينـات.

ومـع هـذا الـذي خـرج بـه الفتـى مـن تجاربـه، لا يـزال قليـل الخـبرة. وليـس مـن عجـب فهـو اليـوم في غـرة شـبابه، وفي بدايـة الشـوط مـن حياتـه، ولما يفـض إليـك إلا بجـزء يسـير مـن ذكرياتـه. وأمامـه مـن صـور الحيـاة بقيـة تطالعـك بوجـوه باسـمة أو شـاحبة، راضيـة مطمئنـة أو حزينـة قلقـة؛ وتعـرض عليـك ألـوان مـن الأحـداث وتهاويـل مـن الأخـلاق، ربمـا فتحـت عينيـك عـلى طريـف غريـب، وربمـا أثـارت في نفسـك عجبـا، وأحدثـت

أمـر أيضـا. وهـي فيـما يقـدر لهـا، تتسـع لمـرض آخـر، لعلـه يجـد الفرصـة، فيسـتأنفه في جـزء ثـان مـن هـذا الكتـاب.

إن شاء الله

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان